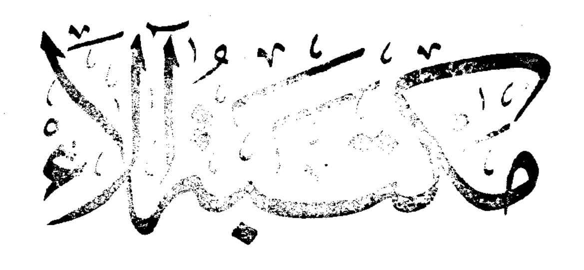
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(١٠)

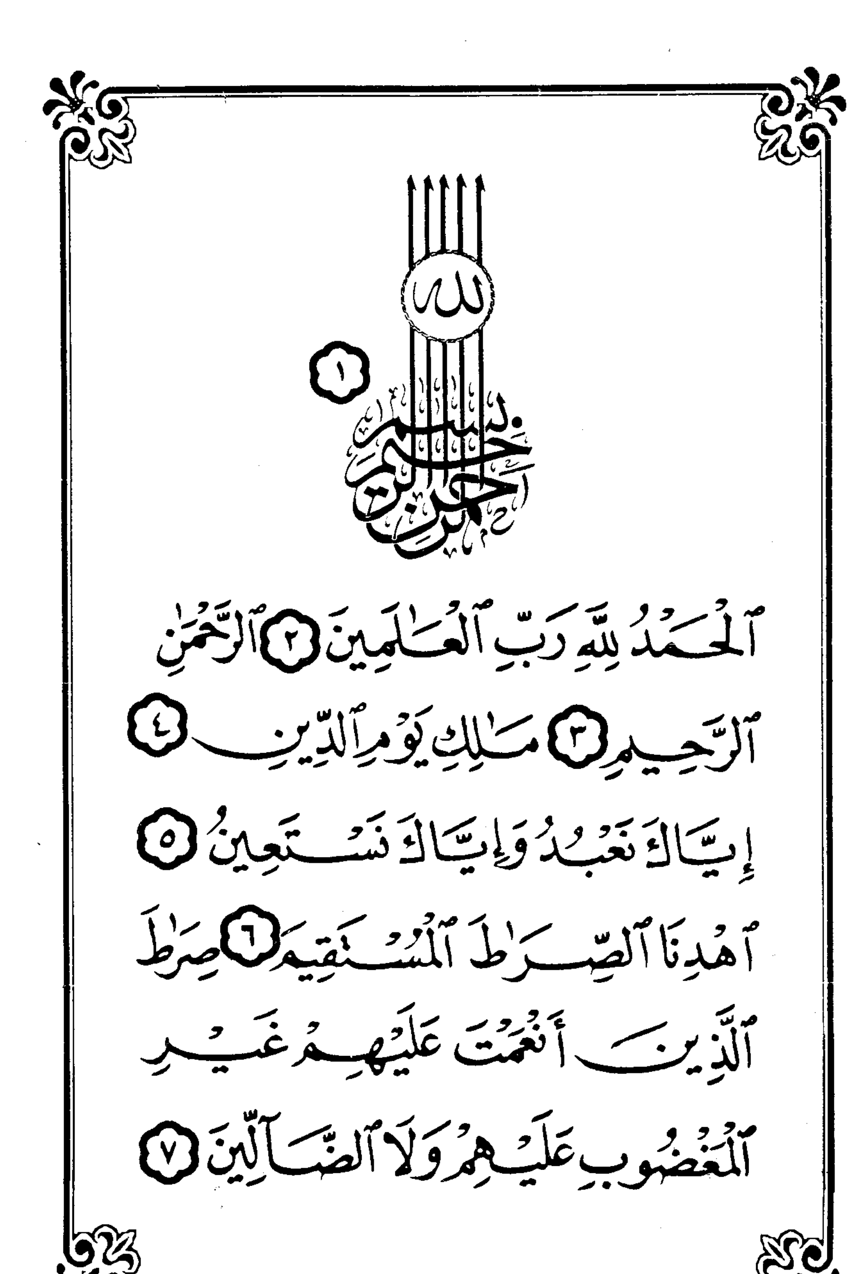
معالم النصر على اليهود

تأليف

الدكتور سعد المرصفي



مكتبة المنار الإسلامية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

مَعَالِمُ النَّصْرِ عَلَى اليَهُودِ

الطبعـة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes



مكتبة المنار الإسلامية

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045

Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

عرفنا خطر اليهودية العالمية من خلال أحاديثنا من قبل عن :

١ ـ أسطورة الوطن اليهودى .

٢ ـ الفكر اليهودى .

٣ ـ موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ .

٤ ـ الطبيعة اليهودية .

٥ ـ التآمر اليهودى على حياة الرسول ﷺ .

٦ ـ اليهود والخيانة .

٧ ـ القضاء على اليهود عسكريا .

٨ ـ محاكمة اليهود .

٩ ـ الخطر اليهودى .

وفلسطين آخر معقل يسقط .. وهذه الكارثة نبهت الصادقين إلى حقيقة واقعهم المر، وغفلة الأمة وتخاذلها وضعفها، بعد أن وجد المسلمون أنفسهم أمام خطر مدمر، لا يقل عن الخطر الوحشى الذى تعرضوا له أيام الحروب الصليبية، والخطر الهمجى الذى واجههم أيام التتار.. وإن كانت الصورة العامة تدعو إلى الاعتراف بواقع احتلال فلسطين الذى يندى له الجبين!

وما أشبه الليلة بالبارحة! فقد بدأت الأمة تفيق من غفوتها، وأحس كثيرون بالأخطار الجسيمة التى تتهدد المسلمين من جراء السرطان اليهودى الذى أخذ ينشب أظفاره ، ويستشرى فى ديار المسلمين!

وتطالعنا ضرورة المواجهة، ونبوءة النصر، فيما يرويه الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« تقاتلكم اليهود ، فتسلطون عليهم ، حتى يقول الحجر : يا مسلم ! هذا يهودى ورائى فاقتله » .

وعلينا أن نخوض المعركة على أساس أنها معركة عقيدة ..

وهنا يأتى الحديث عن معالم النصر ..

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : ليس لليهود قومية ولا وطن .

الفصل الثانى : دولة إسرائيل فى العصر الحديث .

الفصل الثالث : الطريق إلى النصر .

والله أسأل : التوفيق والسداد .

والعون والرشاد .

إنه سميع مجيب !!

الكويت فى : ٤ ربيع الثانى ١٤١٣ هـ
١ أكتوبر ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول

ليس لليهود قومية ولا وطن

بين مصر وفلسطين ـ فى الأرض المقدسة ـ فى الجزيرة العربية ـ دعوى اليهود أنهم من نسل إبراهيم ـ ليس للعبريين اسم معروف فى فلسطين ـ بيت المقدس ليس مقدّسا ـ فلسطين ليست وطنا لليهود ـ فلسطين وطن العرب ـ عهد باطل ـ المسلمون لا اليهود ـ عهد نوح ـ ميثاق أكبر ـ دعوى يردها الواقع ـ قول المسيح في اليهود : «أنتم من أب هو إبليس » ـ الإنجليز واليهود ـ الفرنسيون واليهود ـ الإيطاليون واليهود ـ الأسبانيون واليهود ـ الروسيون واليهود ـ الألمانيون واليهود ـ عقوبات عبر التاريخ ـ مأثرة يمتدح بها المسيحيون ـ أسباب العقوبات : أنانيتهم وأطماعهم ـ غرورهم وتعاليمهم ـ عصبيتهم وخيانتهم ـ اضطهادهم لغيرهم متى تملكوا القدرة.

بين مصر وفلسطين :

سبق أن عرفنا أن بعض المؤرخين يرى أن يعقوب وهو إسرائيل هاجر بأهله من فلسطين إلى مصر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد [١] ، على أثر ما حاق بفلسطين من مجاعة وما أصاب مراعيها من جدب وقحط وجفاف، وأن تفصيل ذلك يرجع إلى أن أبناء يعقوب عليه السلام كانوا فى هذه الفترة يترددون على مصر لقصد التجارة ، وطلب القوت ، فتعرفوا على أخيهم يوسف عليه السلام، الذى كان فى ذلك الوقت أمينا على خزائن مصر، فأكرمهم وطلب منهم أن يحضروا جميعا، ومعهم أبوهم يعقوب عليه السلام، إلى أرض مصر ، وكان عددهم ـ كما جاء فى سفر التكوين ـ ستا وستين نفسا سوى نسوة أولاده [٢] .

وعرفنا ـ كذلك ـ كيف أكرم يوسف عليه السلام مثوى أبويه وإخوته، ورقق لهم قلب ملك مصر فى ذلك الوقت ، وطلب بنو إسرائيل من ملك مصر أن يسكنهم فى أرض جاسان ـ يقال: إن مكانها الآن « بلدة صفط الحنة » بمحافظة الشرقية بمصر ـ فاستجاب لهم، وقال ليوسف ـ كما جاء فى سفر التكوين ـ : أبوك وإخوتك جاءوا إليك أرض مصر، ففى أفضل أرضها أسكن أباك وإخوتك ، ليكونوا فى أرض جاسان .. فأسكن أباه وإخوته، وأعطاهم ملكا فى أرض مصر فى أفضل الأرض ، وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه .. [٣] .

وعرضنا لما فى سورة يوسف من تصوير رائع لما حصل بينه وبين إخوته من أحداث ، وهجرة يعقوب ببنيه إلى مصر ، وما تلا ذلك من مواقف .. وأنهم ـ كما يقول الدكتور أحمد بدوى وهو يصف علاقة المصريين ببنى إسرائيل فى تلك الفترة ـ : قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل، جاءوها أول الأمر لاجئين، يطلبون الرزق فى أرضها، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم، والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام ، ثم جاءوها أسارى فى ركاب فرعون ، كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافرا منصورا، فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء، ويعبدون أربابهم أحرارا، لم يكرههم أحد على قبول مذهب أو اعتناق دين ، وتطيب لهم الإقامة فى مصر، وتستقيم لهم فيها أمور

---

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم : ٤٠ بتصرف.

(٢) سفر التكوين : ٦ : ٤ .

(٣) سفر التكوين: ٤٧ .

الحياة ، ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد ، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب ، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ، ويتربصون بهم الدوائر، ويعملون على إفقارهم، ، وإضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشعب، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش فى هذا القطر ، ليفرضوا عليه سلطانهم ، تارة عن طريق الضغط الاقتصادى ، وأخرى عن طريق الدين والعقيدة [١] .

وعرفنا كيف خرجوا من مصر .. وأن تعدادهم العام كان يزيد على المليون .. ففى سفر العدد: الإصحاح الأول: إن موسى أحصى بنى إسرائيل عند الخروج من مصر ، فوجد حملة السلاح منهم يبلغون (٦٠٣٥٠٠) نسمة.

وأنهم سلبوا حلىّ المصريين عند خروجهم.. ويعلق أحد المؤرخين على قصة استلاب بنى إسرائيل لهذه الحلى فيقول: ويلفت النظر خاصة ما جاء فى التوراة من سلب رجال ونساء بنى إسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحيلة الاستعارة، ونسبة ذلك إلى الله تعالى، ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الأسلوب ، يدل على ما كان وظل يتحكم فى نفوس بنى إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس، كما أنه كان ذا أثر شديد ــ بدون ريب ــ فى رسوخ هذا الخلق العجيب فى ذراريهم ، ثم من دخل فى دينهم من غير جنسهم [٢] .

ويقول صاحب تاريخ الإسرائيليين: وقد كان تاريخهم إلى وقت خروجهم من مصر، تاريخ أسرة صغيرة أخذت تنمو وتزداد حتى صارت قبيلة كبيرة لا كيان لها ولا حكومة منها، ولا شارع أو وازع فيها ينظر فى أمورها، ويرد قويها عن ضعيفها، متفرقة فى أرض مصر ، عرضة للعبودية والسخرة والاستبداد والإهانة، أما بعد الخروج فإنهم تألفوا شعبا واحدا ، وأمة واحدة لها قائدها من بنيها، وجيش يقوم على حمايتها، وحاكم يتولى أمورها وشئونها، وأخذت تبدو فيها صفات الأمة المستقلة، فإنها لم تكد تغادر مصر، حتى بدأ الشارع فى سن النواميس والقوانين، والشرائع الدينية والأدبية والمدنية كما تكون فى الأمة المستقلة القائمة بنفسها ، وعليه فتاريخ بنى إسرائيل لا يبتدىء إلا بعد خروجهم من مصر، وتاريخهم هذا يستغرق قرونا عديدة ، اتفق لهم فى خلالها كثير من الحوادث العادية من حروب وتقدم وانحطاط [٣] .

وسبق أن عرفنا قبائحهم فى الطريق إلى الشام ..

---

(١) في موكب الشمس : ٢ : ٥٨٨ ــ ٥٨٦ .
(٢) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم :٤٣ .
(٣) تاريخ الإسرائيليين : ١٥ ط المقتطفة ١٩٠٤ .

فى الأرض المقدسة :

وبعد وفاة موسى عليه السلام ، عبر « يوشع » ببنى - إسرائيل ـ كما تحكى التوراة ـ نهر الأردن إلى الأرض المقدسة ، وأول مدينة استطاع « يوشع » ومن معه أن يدخلوها هى مدينة «أريحا» ثم زحف على مدينة «العى » التى هى بين « نابلس » و «القدس » من ناحية الشرق ، وأن بنى إسرائيل بعد أن دخلوا هاتين المدينتين قتلوا معظم سكانهما ، ثم صلبوا ملك « العى » على باب المدينة ! ثم حكت التوراة بعد ذلك قصة انتصار «يوشع » ومن معه من بنى إسرائيل على الكنعانيين ـ الذين هم سكان فلسطين فى ذلك الوقت ـ وكيف أن بنى إسرائيل كانوا يقتلون رجال ونساء وأطفال المدينة التى تقع فى أيديهم بأمر الرب ! كما يفعلون الأن تماما فى فلسطين ! فهم يقتلون الرجال والنساء والأطفال باسم الرب ! كما يزعمون !

ففى الإصحاح العاشر من سفر « يشوع » هذه العبارة : إن « يشوع » ضرب جميع أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها وأبسل ـ أهلك ـ كل نسمة كما أمر الرب ، ولم يبق باقية منهم، فضرب من « قادس » إلى « غزة » وانتصر عليهم ، لأن الرب كان يحارب مع إسرائيل !

ويصف صاحب « قصة الحضارة » ما فعله بنو إسرائيل بالكنعانيين فيقول:

كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلا واضحا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهارا، وكان هذا القتل ـ كما تقول نصوص الكتاب المقدس ـ فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى ، وزكاة للرب ، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثنى عشر ألفا وأحرقوها وصلبوا حاكمها ولسنا نعرف فى تاريخ الحرب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به .. وقد أقام يوشع حكمه على قانون الطبيعة الذى يقول : «إن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا » وبهذه الطريقة التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة [١] .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى : وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة يوشع خليفة موسى عليه السلام بعد وفاته، على بلاد كنعان ـ فلسطين

---

(١) قصة الحضارة : ٢ : ٣٢٦ لديورانت ، ترجمة محمد بدران .

وما إليها وهى الأرض المقدسة ـ واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات ، بعد أن أبادوا معظم أهلها، واستعبدوا من أبقوا عليه منهم، فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار ، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التى ورثوها عن الكنعانيين ، وأخذت مزاولتهم لشئون دينهم تسير على طريق منظم تحت إشراف أحبارهم وربانييهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم ومذابحهم ، وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب، وهم رهط موسى وهارون [١] .

وسبق أن عرفنا كيف أشار القرآن الكريم إلى دخول بنى إسرائيل الأرض المقدسة ..

وتحدثنا ـ كذلك ـ عن العصر الذهبى، وعن أسوأ عهودهم .. وزوال ملك بنى إسرائيل ..

فى الجزيرة العربية :

وعرفنا ـ أيضا ـ كيف هاجر اليهود بعد ذلك إلى الجزيرة العربية .. وأن هناك من المؤرخين من يرى أن هجرتهم إليها كانت فى عهد داود عليه السلام .. ومنهم من يرى أن نزوحهم إليها كان فى عهد « حزقيال » الذى حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ إلى سنة ٦٩٠ ق م .

إلا أن هذين الرأيين ليس لهما سند ثابت من التاريخ ، ولذا لم يعتمد عليهما المحققون من المؤرخين [٢].

والذى ارتضاه بعض هؤلاء المؤرخين ، هو الرأى القائل بأن الهجرة الكبرى لليهود إلى الجزيرة كانت فى القرن الأول الميلادى ، بعد تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠ م .

يقول الدكتور : إسرائيل ولفنسون : « بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم، قصدت جموع قصيرة من اليهود بلاد العرب ، كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى « يوسيفوس » الذى شهد تلك الحروب، وكان قائدا لبعض وحداتها».

ثم يقول : « وتؤيد المصادر العربية كل هذا : فقد ذكر صاحب الأغانى أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام، فوطئوهم وقتلوهم ، ونكحوا نساءهم، خرج بنو

(١) الأسفار المقدسة : ٨ ط نهضة مصر.   (٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ١ : ٧٢ وما بعدها بتصرف.

النضير، وبنوقريظة ، وبنو بهدل، هاربين منهم إلى قن بالحجاز من بني إسرائيل ، لما غلبتهم الروم على الشام ، فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم في طلبهم ليردهم فأعجزوه ، وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحارى لا نبات فيها ولا ماء، فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا، وسمي الموضع « تمر الروم » فهو اسمه إلى اليوم » (١) .

ويرجح الدكتور جواد علي ـ أيضا ـ أن هجرة اليهود إلى الجزيرة كانت بعد غزو الرومان لهم فيقول : « أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام، وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين ، ومن هؤلاء، المهاجرين ـ على رأى الإخباريين ـ بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو بهدل ، ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب، فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه رديئا، فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا طيبا، وأرضا عذبة، حتى إذا بلغ « العالية » وهى « بطحان » و « مهزور » وهما واديان بأرض عذبة بها مياه وعيون، استقر رأيهم على الإقامة فيها، فنزل بنو النضير ومن معهم على « بطحان » ، ونزلت قريظة وبهدل على « مهزور » (٢) .

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى : وبذلك نرى أن الرأى القريب من الصواب، هو أن غالبية يهود جزيرة العرب حلّوا بها فى القرن الأول الميلادى ، أى بعد تدمير «أورشليم» الثانى على يد « تيطس » الرومانى ، وكان حلولهم بها من أهم أسبابه ، فرارهم من وجه الرومان، حتى ينجوا من بطشهم وفتكهم بهم (٣) .

وسبق أن عرفنا كيف كانت مواجهة يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير ، ويهود بني قريظة، ويهود خيبر .. حتى أجلاهم عمر رضى الله عنه ...

ونخلص من هذا إلى أن اليهود خرجوا من مصر.. وخرجوامن الأرض المقدسة .. وخرجوا من الجزيرة العربية ، لفسادهم وإفسادهم .. وليس لهم حق فى هذه البلاد ...

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٩ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٦ : ١٠ .

(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ١ : ٧٤ .

دعوى اليهود أنهم من نسل إبراهيم :

واليهود يدعون أنهم من نسل إبراهيم عليه السلام ، الذى ثبت ـ كما تذكر المصادر الإسرائيلية ـ أنه هاجر من العراق إلى فلسطين ، وسكن مع سكانها الأصليين وهم الكنعانيون والفلسطينيون (١) .

وقبل مولد إبراهيم بآلاف السنين كانت فلسطين ملك أهلها العرب، وكان هو وبنوه فى أرض لا تربطهم بأهلها رابطة ..

وفى سفر التكوين (٢) :

« وماتت سارة فى قرب أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان ، فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكى عليها ، وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بنى حث قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم، أعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى ...».

ورواية التوراة هذه تثبت أن إبراهيم عليه السلام لم يكن كنعانيا ولا فلسطينيا ، ولم يكن من سكان فلسطين، وهو يعترف صراحة بأنه « غريب ونزيل » فيها.

ومن ثم فهم ـ أيضا ـ كما عرفنا غرباء عن فلسطين، ودعواهم هذه ترد عليهم فى اغتصابهم لفلسطين فى عصرنا الحاضر !

ليس للعبريين اسم معروف فى فلسطين :

وبعد إبراهيم عليه السلام بقرون تبلغ خمسة أو ستة لم يكن للعبريين أى أثر فى فلسطين ، لاحكم ولا تملك، ثم كان عهد موسى عليه السلام، وهو قبل المسيح عليه السلام بخمسة عشر قرنا تقريبا .. ولم يكن للعبريين أيضا اسم معروف فى فلسطين.. ثم بعد دخول يوشع لم يكن الإسرائيليون يملكون من فلسطين إلا رقعا صغيرة ، ولم تقم لهم مملكة إلا فى أيام « شاول » الذى انتحر هو وأبناؤه وجيشه بسبب هزيمته سنة ١٠٥٦ ق م ، حيث هزمهم الفلسطينيون هزيمة نكراء .

والمملكة التى قامت للإسرائيليين بحق كانت مملكة داود وسليمان عليهما السلام ـ كما أسلفنا ـ ومع ذلك لم تكن غير مملكة صغيرة، انتهت بوفاة سليمان سنة ٩٨٤ ق م كما يقول المؤرخون .

---

(١) اليهودية والصهيونية : ١٤٤ وما بعدها بتصرف.

(٣) سفر التكوين : ٢٣ : ٢ ـ ١٦.

ثم انقسمت ــ كما عرفنا ــ إلى قسمين ..

بيت المقدس ليس مقدسا :

وبيت المقدس لم يكن مقدسا بالإجماع لدى اليهود، وكانت المدينة فى أيدى اليبوسيين، وكان يسكنها بنو بنيامين مع اليبوسيين، دون أن يكون لهم أى حق فى بيت المقدس، بل كان الحق كله لليبوسيين.

ولو كان للمدينة قداسة عند الإسرائيليين لما دمرها « يهوآسن » ملك إسرائيل، ففى سفر الملوك : (١).

« فانهزم يهوذا أمام إسرائيل ، وهربوا كل واحد إلى خيمته ، وأما أمصيا ملك يهوذا.. فأمسكه يهوآسن ملك إسرائيل فى بيت شمس وجاء إلى أورشليم ، وهدم سور أورشليم من باب أفرايم إلى باب الزاوية أربعمائة ذراع، وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة فى بيت الرب، وفى خزائن بيت الملك والرهناء، ورجع إلى السامرة، وبقية أمور يهوآسن التى عمل وجبروته، وكيف حارب أمصيا ملك يهوذا .. ثم اضطجع يهوآسن مع آبائه ودفن فى السامرة ».

ومع هذا العدوان الصارخ من يهوآسن على بيت الرب ونهبه ما فيه ، لم يكن موضع غضب الله وسخطه ، لأنه اضطجع مع آبائه ، وهذا الاضطجاع آية على رضا الله عندهم، لأنه لا يرقد مع الآباء إلا الأبناء البررة الصالحون!

فلسطين ليست وطنا لليهود:

ولما حدث السبى البابلى لم يكن حنين الإسرائيليين لفلسطين، باعتبار أنها الوطن القومى ، بل كان الحنين إلى ذكرياتهم، حيث كان لهم ذات يوم مضى ملك وسيادة ، ولو تيسر لهم فى المنفى ما يحنون إليه لما ذكروا فلسطين ، بل هم لم يذكروها، وإنما كانوا يذكرون جبل صهيون!

ولما أبيح لهم أن يعودوا من الأسر إلى فلسطين، تخلف عدد جد كبير منهم فى العراق، وآثروه على فلسطين، مما يدل على أن الوطنية لم تكن عاطفة أصيلة فيهم، فحيث يجدون مأملهم يكون الوطن!

وسواء أكان اليهود يحنون إلى فلسطين أم لا يحنون ، فما كانت لهم وطنا قط

---

(١) سفر الملوك: ١٤ : ١٢ ــ ١٦.

إلا الرقع الصغيرة التى اغتصبت من أهلها ولم تكن لديهم عاطفة الوطنية أصيلة، لأنهم كانوا يهاجرون منها بالآلاف ، ويتركون فلسطين إلى غير عودة !

فلسطين وطن العرب :

أما العرب فلم يذكر تاريخهم فى فلسطين أنهم تركوها قط، بل عاشوا فيها كتراب أرضها ، بل كجبال فلسطين ، ولم يفكروا قط فى هجرها، مع ما مر بهم من فترات كانوا فيها تحت أحكام غاشمة أجنبية ، وكانوا يحاربون الغزاة حربا ، ويفتدون فلسطين بالدم، فإذا غلبوا على أمرهم صبروا وهم على أرضهم وفى وطنهم، لأنه جزء منه.

وفلسطين ـ كما عرفنا ـ لم تكن أرضا يهودية قط، وإبراهيم عليه السلام ـ كما سجلت التوراة ـ غريب ونزيل فيها، ولما كان من الصالحين وجد من سكان فلسطين حفاوة وترحابا ، وعاش حياته غريبا فيها ونزيلا لدى أهلها باعتراف التوراة الصريح.

عهد باطـــل :

وأكبر دعوى اليهود فى عصرنا الحاضر، وتشبثهم بها ، أن الله أعطاهم عهدا، بأن تكون فلسطين وما يمتد من النيل إلى الفرات لهم دون غيرهم، وحجتهم ما جاء فى أسفارهم المقدسة عندهم.

ودعواهم هذه دعوى من جانب واحد، وما حجتهم الداحضة إلا جزء من هذه الدعوى الباطلة من الأساس .

جاء فى سفر التكوين ـ أول أسفار توراتهم ـ : (١) « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

وفيه أيضا : (٢) « أما أنا فهو ذا عهدى معك، وتكون أبا لجمهور من الأمم، فلا يدعى اسمك بعد إبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم، لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيرا جدا ، وأجعلك أمما، وملوك منه يخرجون، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا، لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا».

ثم تكرر هذا الوعد من بعد إبراهيم لإسحاق ويعقوب وداود وموسى وغيرهم ، ففى

---

(١) سفر التكوين : ١٥ : ١٨ .

(٢) المرجع السابق : ١٧ : ٤ ـ ٨ .

سفر التكوين أيضا : (١) « وكان فى الأرض جوع غير الجوع الذى كان فى أيام إبراهيم، فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار ، وظهر له الرب وقال: لا تنزل إلى مصر، اسكن فى الأرض التى أقول لك: تغرب فى هذه الأرض فأكون معك وأباركك لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى أقسمت لإبراهيم أبيك ، وأكثر نسلك كنجوم السماء، وأعطى نسلك جميع هذه البلاد ، وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض ».

وتجدد هذا العهد أو الوعد ليعقوب ، ففى هذا السفر الذى هو أول أسفار توراتهم:(٢) « فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران ، وصادف مكانا وبات هناك، لأن الشمس كانت قد غابت ، وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه، فاضطجع فى ذلك المكان، ورأى حلما، وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهو ذا الرب واقف عليها فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق، الأرض التى أنت مضطجع عليها لك ولنسلك ، ويكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا، ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض ».

وعهد الله ـ حسب هذه الروايات التى تحكيها التوراة ـ لإبراهيم ، ثم لإسحاق ، ثم ليعقوب، عليهم السلام، بأن يعطيهم هم أرض غربتهم لم يقع، فإبراهيم ـ كما حكت التوراةنفسها ـ لم يكن يملك شبرا من الأرض، ولما ماتت زوجه الكريمة سارة لم يكن يملك مدفنا أيضا ، كما عرفنا من نصوص التوراة .

وإسحاق ـ كما حكت التوراة أيضا ـ ذهب إلى ملك جرار مستجديا ، ويعقوب أرسل أولاده إلى مصر يمتارون، وحسبه ـ كما سجلت التوراة ـ أنه لم يكن لديه فراش يضطجع عليه ، ولا وسادة يضع عليها رأسه، فاتخذ من الحجارة وسادا.

ومات إبراهيم ، ثم إسحاق ، ثم يعقوب ، ولم يُعط أحد منهم أرض غربته،بل إن نسلهم الذى اختصته أسفار اليهود المقدسة عندهم لم يعطوا أرض غربتهم ، إذ لم يملك بنو إسرائيل إلا قطعا صغيرة من أرض الغربة.

وعهد الله لإبراهيم بأن يعطى نسله هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات لم يتحقق ، حتى هذا اليوم ، بالنسبة لنسل إسحاق الذى انحدر منه العبرانيون أو بنو إسرائيل.

(١) المرجع السابق : ٢٦ : ١ ـ ٤ . (٢) المرجع السابق : ٢٨ : ١٠ ـ ١٤ .

ومع أن أربعة آلاف سنة مرت على ذلك العهد ـ كما تنص التوراة ـ فإنه لم يتحقق، ومعاذ الله ألا يتحقق وعد الله وألا يقع عهده.

وفى العهد أن الله يكثر نسل إسحاق كنجوم السماء، كما يجعل نسل يعقوب كتراب الأرض، وها هى ذى أربعة آلاف سنة مرت ولم يكثر نسلهما كالنجوم أو التراب.

وعهد الله لإبراهيم بأن يجعله أبا لجمهور من الأمم، وأن يجعله أمما، ويخرج منه ملوك، لم يتحقق بالنسبة لبنى إسرائيل، فلم يكونوا جمهورا من الأمم، ولم يكن منهم ملوك إلا قلة معدودة، ومنذ أكثر من خمسة وعشرين قرنا لم يكن منهم ملك قط.

المسلمون لا اليهود :

ولكن كل هذا العهد قد تحقق بالنسبة للعرب بعد إبراهيم عليه السلام، فهم قد ملكوا فلسطين، وملكوا مصر، والعراق، وعشرات الأقطار، وما زالوا يملكونها حتى وصلوا إلى أوربا والمحيط الأطلسى غربا،وإلى الصين شرقا، وأخذ حكم الإسلام يمتد فى كل اتجاه حتى دخلت فيه قارات وقارات.

وإذا كان بنو إسماعيل خارجين عن ذلك العهد، فكله يكون عهدا باطلا، ومعاذ الله أن يكون عهد الله غير حق، وما يكون هذا العهد حقا إلا بالنسبة لنسل إبراهيم من إسماعيل عليهما السلام، والمسلمون جميعا من أى أب كانوا هم أبناء إبراهيم، كما جاء فى القرآن الكريم، إذ يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[1].

ففى هاتين الآيتين يجمع القرآن المنهاج الذى رسمه الله لهذه الأمة المسلمة، ويلخص تكاليفها التى ناطها الحق بها، ويقرر مكانها الذى قدره لها، ويثبت جذورها فى الماضى

(١) الحج : ٧٧ ـ ٧٨.

والحاضر والمستقبل، متى استقامت على النهج الذى أراده لها الله.

إنه منهج عريق أصيل فى ماضى البشرية ـ كما أسلفنا ـ موصول الماضى بالحاضر.

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾

وهو منبع التوحيد الذى اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم عليه السلام، فلم تنقطع من الأرض ، ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كتلك التى أبصرناها فى العقيدة اليهودية حين انحرفت فانجرفت.

ثم إن محتويات العهد تصرفه عن اليهود إلى المسلمين، فعهد الله ـ على زعمهم ـ لإسحاق ويعقوب بأن يتبارك فى نسلهما جميع أمم الأرض لم يقع قط، ولن يقع أبدا، فمنذ عرف الناس اليهود ونقيض البركة هو الذى حدث من اليهود.

وأما فى الحاضر فهم كما فى الماضى ، كانوا وما يزالون مسعر الفتن والحروب ، ومباءة الفساد وجميع الشرور.

وفى المستقبل لن يتغيروا، لأن عقيدتهم ـ رغم ما دخلها من تحريف وتخريف ـ قد احتكروها لأنفسهم ـ كما أسلفنا ـ وربهم « يهوه » محتكر لهم أيضا ، وهو عندهم يشبه الأب الذى لا يمكن أن يدخل فى نسبه وعداد ولده من لم يولد منه.

كذلك اليهود ، ولهذا لن يتبارك فيهم أحد من أمم الأرض جميعا.

وهذا العهد تحقق كل التحقق بالنسبة لنسل إسماعيل عليه السلام، وليس بالنسبة لإسحاق ويعقوب عليهما السلام، فرسالة خاتم النبيين ﷺ هى رسالة الرحمة والإنسانية والهدى، والله عز وجل هو رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، ورحمته وسعت كل شىء .

وهى رسالة مفتوحة للأمم كافة، على نقيض اليهودية المغلقة ، ومن هنا كان عهداً لله حقا بالنسبة لإسماعيل عليه السلام، وغير واقع بالنسبة لغيره من نسل إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

عهد نوح :

والعهد لم يكن ـ على رواية التوراة التى ذكرناها ـ خاصا بإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وداود وغيرهم، بل سبق أن أعطيه نوح ، كما يذكر أول أسفار توراتهم :

سفر التكوين : (١) «وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا: وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التى معكم : الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض ، أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضا بمياه الطوفان، ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض، وقال الله: هذه علاقة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر ، وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاقى بينى وبين الأرض ، فيكون متى أنشر سحابا على الأرض، وتظهر القوس فى السحاب، إنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد، فلا تكون أيضا المياه طوفانا لتهلك كل ذى جسد، فمتى كانت القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقا أبديا بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض. وقال الله لنوح: هذه علامة ميثاقى الذى أنا أقمته بينى وبين كل ذى جسد على الأرض ».

وهذا الميثاق يتفق مع كمال الله ورحمته التى عمت الخلق كله، ووسعت كل شىء، فهو عهد بين الله وبين كل ذى نفس حية.

ميثاق أكبر :

وعقب الآيات القرآنية الكثيرة التى تحدثت عن قصة بنى إسرائيل ــ كما أسلفنا ــ نبصر قضية الميثاق الأكبر الذى أخذه الله على فطرة البشر .. فى مشهد جليل فى كل ما يتصل به :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) .

إنها قضية الفطرة والعقيدة،(٣) يعرضها السياق القرآنى فى صورة مشهد ــ على

---

(١) سفر التكوين : ٩ : ٨ ــ ١٧.   (٢) الأعراف : ١٧٢ ــ ١٧٤ .

(٣) في ظلال القرآن : ٣ : ١٣٩٢ بتصرف.

طريقة القرآن الغالبة ـ وإنه لمشهد فريد.. مشهد الذرية المكنونة فى عالم الغيب السحيق، المستكنة فى ظهور بنى آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، يسألها الخالق : « ألست بربكم ؟ » فتعترف له سبحانه بالربوبية، وتقر له سبحانه بالعبودية، وتشهد له سبحانه بالوحدانية، وهى منثورة كالذر ، مجموعة فى قبضة الخالق العظيم !

إنه مشهد كونى رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً فى تصوراتها المأثورة!

وإنه لمشهد عجيب فريد، حين يتملاه الخيال البشرى جهد طاقته! وحينما يتصور تلك الخلايا التى لا تحصى ، وهى تجمع وتقبض ، وهى تخاطب بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التى أودعها إياها الخالق جل شأنه، وهى تستجيب فتعترف وتقر وتشهد، ويؤخذ عليها الميثاق فى الأصلاب !

وإن الكيان البشرى ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد..وهو يتمثل الذر السابح .. وفى كل خلية حياة.. وفى كل خلية استعداد كامن.. وفى كل خلية كائن إنسانى مكتمل الصفات ، ينتظر الإذن له بالنماء والظهور، فى الصورة المكنونة له فى ضمير الوجود المجهول ، ويقطع على نفسه العهد والميثاق، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم !

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد ، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة فى أعماق الفطرة الإنسانية وفى أعماق الوجود.. عرض القرآن هذا المشهد قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام! ثم يهتدى البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة .. فإذا العلم يقرر أن خلايا الوراثة التى تحفظ سجل الإنسان ، وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا فى الأصلاب.. صغيرة صغيرة...

ولا يملك الإدراك البشرى أن يدرك كيفيات هذا المشهد .. إلا ما تذكره النصوص الصحيحة..

وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (١)

---

(١) البخاري: ٢٣ ـ الجنائز (١٣٥٨) ، ومسلم : ٤٦ ـ القدر ٢٢ (٢٦٥٨)، والموطأ: ١٦ ـ الجنائز ٥٢ بلفظ «كل مولود» وأبو داود : السنة (٤٦٨٩) عون المعبود ، والترمذي : القدر (٢١٣٨) .

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تُنْتج البهيمةُ بهيمة عجماء. هل تُحسُّونَ فيها من جَدْعاء ؟ » .

ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه:

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١) .

وحسبنا ـ كذلك ـ أن ندرك أن هناك عهدا من الله على فطرة البشر أن توحده. وأن حقيقة التوحيد مركوزة فى هذه الفطرة، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلا أن يُفسد فطرته عامل خارجى عنها ! عامل يستغل الاستعداد البشرى للهدى والضلال ـ كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم ـ وهو استعداد كذلك كامن تُخرجه إلى حيز الوجود ملابسات يهودية وظروف شيطانية. ففى الحديث الذى يرويه مسلم عن عياض مرفوعا :

« .. وإنى خلقت عبادى حنفاء كلَّهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم..» (٢) .

وإن حقيقة التوحيد ليست مركوزة فى فطرة الإنسان وحده، ولكنها كذلك مركوزة فى فطرة هذا الوجود من حوله... وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله.. موصولة به، غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذى يحكمه .. بينما هى تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة.. فكيف يحتوى الفكر اليهودى على الوثنية الفكرية التى تتنافى مع حقيقة التوحيد ؟ !

إن ناموس التوحيد الذى يحكم هذا الوجود، واضح الأثر فى شكل الكون، وتنسيقه، وتناسق أجزائه، وانتظام حركته، واطراد قوانينه، وتصرفه المطرد وفق هذه القوانين.. وأخيرا ـ حسب العلم القليل الذى وصل إليه البشر ـ وحدة الجوهر الذى تتألف منه ذراته ، وهو الإشعاع الذى تنتهى إليه المواد جميعا عند تحطيم ذراتها وإطلاق شحناتها.. فكيف يشذ اليهود عن ناموس التوحيد الذى يحكم هذا الوجود ؟ !

ويوما بعد يوم يكشف البشر أطرافا من ناموس الوحدة فى طبيعة هذا الكون ، وطبيعة

---

(١) الروم : ٣٠. (٢) مسلم: ٥١ ـ الجنة ٦٣ (٢٨٦٥).

قوانينه التى تحكم تصرفاته ــ فى غير آلية حتمية ولكن بقدر من الله وفق مشيئة الله الطليقة ــ ولكننا نحن لانعتمد على هذا الذى يكشفه علم البشر الظنى الذى لا يمكن أن يكون يقينا بحكم وسائله البشرية فى تقرير هذا الناموس.. إنما نحن نستأنس به مجرد استئناس .. واعتمادنا الأول فى تقرير أية حقيقة كونية مطلقة، على ما قرره لنا الخالق العليم بما خلق..

والقرآن الكريم لا يدع مجالا للشك فى أن الناموس الذى يحكم هذا الكون هو ناموس الوحدة الذى أنشأته المشيئة الواحدة للخالق سبحانه.. كما أنه لا يدع مجالا للشك فى خضوع هذا الكون لربه وسجوده لوحدانيته ، وذلك بالكيفية التى يعلمها الله، ولانعرف عنها إلا ما يخبرنا به الله، وما نراه من الآثار فى انتظامه ودأبه واطراده.. فكيف ينحرف اليهود عن هذا الناموس ؟ !

إن هذا الناموس الذى يصرف هذا الكون كله ــ بقدر الله وفق مشيئة الله الطليقة ــ سار كذلك فى كيان الإنسان بوصفه من كائنات هذا الكون، مستقر فى فطرته تستشعره بذاتها، وتتصرف وفقه ، ما لم يطرأ عليها الخلل والفساد، فتنحرف عن إدراكها الذاتى له، وتدع للأهواء العارضة أن تسيرها بدلا من أن تسير وفق قانونها الداخلى القويم، كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم!

هذا الناموس بذاته هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها.. ميثاق مودع فى كيانها .. مودع فى كل خلية حية منذ نشأتها.. وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات .. وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد . ذى المشيئة الواحدة ، المنشئة للناموس الواحد الذى يحكمها ويصرفها.. فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها إلى أن يقول أحد: إنه غفل عن كتاب الله الهادى إلى التوحيد، وعن رسالات الله التى دعت إلى التوحيد. أو أن يقول: إننى خرجت إلى هذا الوجود، فوجدت آبائى قد أشركوا أو انحرفوا عن التوحيد ــ كما هو شأن اليهود ومن على شاكلتهم ــ فلم يكن أمامى سبيل لمعرفة التوحيد، إنما ضل آبائى فضللت، فهم المسئولون وحدهم ، ولست بالمسئول ! ومن ثم جاء التعقيب على تلك الشهادة:

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

ولكن الله سبحانه رحمة منه بعباده، لما يعلمه من أن استعدادهم أن يضلوا إذا أُضلوا، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف ـ كما عرفنا ـ بفعل الشياطين الذين يعتمدون على ما في التكوين البشرى من نقط الضعف ، كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم!

رحمة من الله بعباده قدّر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا، كما أنه جل شأنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به، حتى يرسل إليهم الرسل، ويفصل الآيات ، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات:

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفى وحدها للهدى، دون رسل ورسالات ، ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله بها عباده (٢) . ولكنه رحمهم بعلمه ، فجعل الحجة عليهم هى الرسالة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يرجعون إلى فطرتهم وعهدها مع الله، وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك. فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بابتغاض حقيقة التوحيد فى القلوب، وردها إلى بارئها الذى فطرها على عقيدة التوحيد. ثم رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير.. ومع كل هذا فاليهود هم اليهود !

دعوى يردها الواقع :

وأما ادعاء اليهود بأن عهد الله مقطوع لهم وحدهم ، فقد كذبتهم فيه محتويات العهد التى ذكرتها أسفارهم المقدسة، وهم قد كذبوا العهد بواقعهم، وأقرب مثال على هذا التكذيب أن العهد مقطوع لهم بأن يكونوا فى الكثرة كنجوم السماء أو تراب الأرض.

---

(١) النساء: ١٦٥ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ٢ : ٨٠٦ وما بعدها.

ومنذ العهد المقطوع حتى اليوم حوالى أربعة آلاف سنة، وعدد اليهود فى العالم كله لم يزد على عشرين مليونا، فى حين أن عدد المسلمين أضعاف أضعاف عددهم بكثير جدا، مما لا يحتاج إلى بيان !

قول المسيح فى اليهود : « أنتم من أب هو إبليس » :

وأسطورة شعب الله المختار يكذبها الواقع منذ قرون مضت ، وحسبنا أن نذكر قول المسيح كما يروى إنجيل متى [1] : « لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة » !

ولكن اليهود كفروا به ، مع أن العهد القديم يبشر به ، فلما بعثه الله إليهم كفروا به وكذبوه واتهموه وحاربوه حتى إن الأناجيل عندهم تذكر أنهم قتلوه ..

ومن الغريب ــ مع ذلك ــ أن بعض أتباع المسيح ما زالوا يعتقدون أن اليهود شعب الله المختار غافلين أو متغافلين عما ينطق به العهد القديم والعهد الجديد !

والعهد القديم لا يعطى عهد الله لمن لم يؤمنوا ، والعهد الجديد كالقديم أيضا فى هذا المنع ، بل ذهب المسيح عليه السلام إلى أبعد من ذلك، فنفى أن يكون معاصروه من اليهود أبناء إبراهيم عليه السلام، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فجعلهم أبناء الشيطان.

ومما لا خلاف فيه أن عهد الله لا يعطاه الشيطان، والمسيح عليه السلام فى الحوار الذى دار بينه وبينهم يكشف عن حقيقتهم ، ويصرخ فى وجوههم: «أنتم تموتون فى خطاياكم» ويعنف الجدل بين المسيح واليهود، وفى إنجيل يوحنا [2] تفصيل ذلك الحوار الذى جاء فيه قول المسيح لهم : « أنا أتكلم بما رأيت .. وأنتم تعلمون ما عند أبيكم » فيجيبه اليهود قائلين : « أبونا هو إبراهيم » فيرد عليهم المسيح بقوله: «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى ، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله، هذا لم يعمله إبراهيم، أنتم تعملون أعمال أبيكم » ؟ !

وغضب اليهود من قول المسيح ، لأنه نفى أبوة إبراهيم عنهم، ونسبهم إلى غيره، فغضبوا وقالوا له : « إننا لم نولد من زنا » ...

---

(١) إنجيل متى : ١٥ : ٢٤.

(٢) إنجيل يوحنا : ١٨ .

ونفد صبر المسيح وقال لهم : « خرجت من قِبل الله وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى، بل ذاك أرسلنى ، لماذا لا تفهمون كلامى ؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولى ، أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا » .

الإنجليز واليهـود :

ولقى اليهود فى بعض عهـود الإنجليز ألوانـا من التعذيب، وصنوفا مـن القتل والتشريد[١] .

من ذلك أن الملك الإنجليزى « يوحنا » أصدر أمرا بحبسهم فى جميع أنحاء مملكته.

والملك « هنرى الثالث » أمر بتعذيب اليهود وحبسهم ، لأنه اكتشف أنهم ينزعون جزءا من ذهب النقود الرسمية وفضتها ، بعد أن يقبضوها، ثم يدفعوها إلى التجار، وقد أدى عملهم هذا إلى النقص فى عملة البلاد الرسمية.

ولم يكتف هذا الملك الإنجليزى بتعذيب اليهود وحبسهم ، بل أصدر أمرا سنة ١٢٣٠م مؤداه أن على اليهود أن يدفعوا إلى الخزينة البريطانية ثلث أموالهم المنقولة.

وعندما تولى « إدوارد الأول » عرش بريطانيا سنة ١٢٧٣ م أصدر أمرا يحرم فيه على اليهود التعامل بالربا ورهن الأرض، بعد أن تبين له أن أموال الدولة توشك أن تذهب إلى جيوب اليهود وحدهم، ولكن اليهود لم يتقيدوا بهذا الأمر، بل سرقوا جزءا كبيرا من ذهب العملة البريطانية، وقد حكم على مائتى يهودى بالإعدام سنة ١٢٨١م بعد أن ثبتت عليهم هذه الجريمة.

وفى سنة ١٢٩٨م جأر الشعب البريطانى بالشكوى من اليهود، فأصدر الملك «إدوارد الأول » ـ أيضا ـ أمرا بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية فى غضون ثلاثة أشهر،إلا أن الشعب البريطانى لم يصبر على اليهود حتى تنقضى تلك المدة، بل أخذ يقتل منهم العشرات والمئات، وفى قلعة « بورك » التى احتمى بها عدد كبير من اليهود أحرق الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودى، وقد اضطر الملك إلى ترحيلهم قبل انقضاء المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا فى كل مكان، وظلت بريطانيا خالية من اليهود طوال ثلاثة قرون

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٣٣٤ وما بعدها بتصرف.

تقريبا. ولكن عادوا إليها سنة ١٦٥٦ م فى عهد « كروميل » الذى اغتصب الملك من «شارل الأول» بعد أن قدم له اليهود الأموال الطائلة فى سبيل بلوغ أغراضه.

الفرنسيون واليهود:

وفى فرنسا تعرض اليهود فى أزمنة مختلفة ، لنقمة الشعب الفرنسى وغضبه، لأنهم دمروا اقتصاده الوطنى، وخنقوه بالربا الفاحش، والمعاملات السيئة.

ففى عهد « لويس التاسع عشر » تدهورت الحالة الاقتصادية فى فرنسا، فأصدر أمرا بإلغاء ثلث ما لليهود على الفرنسيين من ديون، ثم أصدر أمرا آخر بإحراق جميع كتبهم المقدسة ، وخاصة « التلمود » وقد قال أحد المؤرخين : «إنهم أحرقوا فى باريس وحدها محمول أربع وعشرين مركبة من نسخ التلمود وغيرها » [١].

وخلال تولى « فيليب الجميل » حكم فرنسا أنزل الفرنسيون باليهود صنوفا من القتل والنهب والتشريد، ثم طردوا من فرنسا نهائيا ، ولكنهم عادوا إليها بعدأن دفعوا لـ «فيليب» ثلثى الديون التى لهم فى فرنسا.

وفى سنة ١٣٢١ م هاجمهم الشعب الفرنسى ، وذبح عددا كبيرا منهم، ونكل بهم تنكيلا شديدا، ثم طردوا من فرنسا بعد أن نهبت أموالهم، ولم يستطيعوا العودة إليها إلا فى واسط القرن السادس عشر .

وفى أوائل القرن التاسع عشر حاول «نابليون» أن يستغلهم لبلوغ مطامعه، ولكنهم خانوه، فاحتقرهم وبطش بعدد منهم، وقال عنهم: « إنهم حثالات البشر وجراثيمه» ولم ينج اليهود من بطش الشعب الفرنسى إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

الإيطاليون واليهود :

وفى إيطاليا حاربهم البابوات حربا شعواء ، وأطلقوا عليهم اسم « الشعب المكروه» وأغروا الشعب الإيطالى بهم، فأعمل فيهم القتل والتشريد ، وقد أصدر البابوات مراسيم عديدة لتكفير اليهود وتسفيه ديانتهم القائمة على التلمود.

وفى سنة ١٢٤٢ م أعلن البابا «جريجورى» التاسع اتهامات صريحة ضد التلمود

(١) تاريخ الإسرائيليين: ٨٣ شاهين مكاريوس.

الذى يطعن فى المسيح والمسيحية ، وأصدر أوامره بإحراقه فأحرقت جميع نسخه .

وفى سنة ١٥٤٠ م ثار الشعب الإيطالى على اليهود ثورة عارمة قتل فيها الآلاف منهم ، وطردوا من بقى حيا خارج إيطاليا .

الأسبانيون واليهود :

وذاق اليهود من الشعب الأسبانى وملوكه صنوف الذل وألون الهوان، ولم يظفروا بالراحة إلا فى أيام الحكم الإسلامى لأسبانيا.

ولنكتف بذكر عقوبة واحدة من العقوبات المتعددة التى نزلت بهم فى تلك البلاد:

فى عهد الملك « فرديناند» وزوجته «إيزابلا» وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها، لتغلغلهم فى الحياة الأسبانية ، واستيلائهم على اقتصادها، وإشعالهم نار الخلافات الدينية بين الطوائف.. فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هى طردهم من أسبانيا طردا نهائيا.

وفى ٣١ من مارس سنة ١٤٩٢ م صدر المرسوم التالى عن الملك «فرديناند»:

« يعيش فى مملكتنا عدد غير قليل من اليهود، ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتى عشرة سنة، وهى تعمل دائما على توقيع العقوبة على المدنيين ، وبناء على التقارير التى رفعتها لنا محاكم التفتيش ، ثبت بأن الصدام الذى يقع بين المسيحيين واليهود يؤدى إلى ضرر عظيم، ويؤدى بالتالى إلى القضاء على المذهب الكاثوليكى، ولذا قررنا نفى اليهود ذكورا وإناثا خارج حدود مملكتنا ، وإلى الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون فى بلادنا وممتلكاتنا ومن غير تمييز فى الجنس أو الأعمار أن يغادروا فى غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام ، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أى ظرف أو سبب.

ومن أجل أن يتدبر اليهود أمورهم استعدادا للرحيل منحناهم حمايتنا الملكية، أرواحهم وأملاكهم لغاية آخر يوليو، ونسمح لهم كذلك بأن ينقلوا معهم برا أو بحرا ما يملكون ، باستثناء الذهب والفضة والعملة الذهبية ، والأشياء التى يشملها قانون المنع العام»[1] .

---

(١) انظر : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية : ١١٨.

وهكذا تم طرد نحو نصف مليون يهودى من أسبانيا : علمائهم وفلاسفتهم وأغنيائهم وفقرائهم ، فى عملية من أخطر العمليات الانتقامية فى التاريخ.

انتشر يهود أسبانيا الهاربون بين دول البحر الأبيض المتوسط ، وفتك بهم الجوع والمرض ، وباع القراصنة آلاف اليهود لتجار العبيد.

كل ذلك بسبب غريزة الشر المتأصلة فى نفوسهم، وعقيدة التعالى والغرور الراسخة فى أعماقهم (١).

ويعتبر بعض اليهود هذا القرار وما تلاه من طرد وتشريد أسوأ من خراب أورشليم (٢).

الروسيون واليهود :

وكان يعيش نصف يهود العالم تقريبا خلال القرن التاسع عشر فى روسيا، وقد استعملوا طول مدة إقامتهم كل وسائلهم الخبيثة للتدمير والتخريب، ففتحوا الحانات وتاجروا فى الخمور ، وأقرضوا بالربا الفاحش ، واستولوا على الكثير من أموال الدولة بالطرق المحرمة، وقتلوا الكثير من أبناء الشعب الروسى ، عندما مكنتهم الظروف من ذلك، وكوّنوا الجمعيات السرية التى عملت على هدم الحكم القيصرى، واستمرت فى نشاطها حتى أزالته بواسطة الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧م هذه الثورة التى كان معظم قوادها من اليهود.

ومن قبل لم ينس الروس لليهود ما قاموا به نحوهم من عدوان واستغلال، فانقضوا عليهم عدة مرات، للتخلص منهم ، وأعملوا فيهم الذبح والقتل بلا رحمة .

وكان من أبرز المذابح التى أوقعها الروس مذبحة سنة ١٨٨١م ومذبحة سنة ١٨٨٢م فقد حاول الفلاحون الروس أن يدمروا اليهود تدميرا فى هاتين السنتين.

وعندما نشر الكاتب الروسى «نيلوس» نسخا قليلة من « بروتوكولات حكماء صهيون» سنة ١٩٠٢م التى تفضح نيات اليهود الإجرامية تجاه العالم أجمع ـ والتى سبق

---

(١) المرجع السابق.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢: ٣٣٨ بتصرف.

ذكرها ـ جن جنونهم خوفا وفزعا ، وعمت المذابح ضدهم فى روسيا ، حتى لقد قتل منهم فى إحداها عشرة آلاف يهودى .

الألمانيون واليهود :

وانتشر اليهود فى كثير من مدن ألمانيا منذ القرن التاسع عشر، وسكنوا على ضفاف نهر الرايين، واستغلوا الشعب الألمانى أسوأ استغلال ، حتى كادوا يستولون على أمواله، عن طريق الربا الفاحش ، واستخدام الوسائل المختلفة لجمع المال الحرام.

ولقد هاج الشعب الألمانى ضدهم فى أوقات مختلفة ، واستعمل معهم كل وسائل القتل والسلب والطرد.

يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين: وظل القتل والذبح منتشرا فى اليهود، إلى أن صدرت الأوامر بطردهم من أنحاء ألمانيا فى أزمنة متتابعة ، وذلك ما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر ، حتى لم يكد يبقى منهم واحد فيها .. [١].

وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد « هتلر» ابتداء من توليته حكم ألمانيا سنة ١٩٣٣م إلى أن سقط حكمه سنة ١٩٤٥م.

ويعدد المؤرخ الدكتور أحمد بدوى بعض ما شاهده من خيانات اليهود لألمانيا بقوله :

أنا أعلم ـ وأشهد الله على ما أعلم ـ أن « أدولف هتلر» لم يكن متجنيا ولا ظالما، عندما وقف يدفع عدوان اليهود عن وطنه ، بعد أن أكلوا أرزاقه، وحاولوا إذلاله، فقد خرج الشعب الألمانى من الحرب العالمية الأولى مغلوبا على أمره، كسير الجناح، فانتهز اليهود فرصة تلك المحنة ، وعملوا على تجويعه وإذلاله، والعبث بكرامته، وعرض أهله، فملئوا مدائن البلاد بدور الفسق والدعارة ، يتجرون فيها بأخلاق الشبان من الجنسين بغية الكسب والإثراء، ورموا هناك بذور الخلاف السياسى والاقتصادى ، حتى مزقوا الألمان أحزابا مختلفة، يتعب العدُّ من حصرها [٢].

---

(١) المرجع السابق: ٣٣٩ نقلا عن: تاريخ الإسرائيليين : ٨٨.

(٢) مقارنة الأديان ـ اليهودية : ٧٨ نقلا عن : في موكب الشمس : ٢ : ٨٨٧ ـ ٨٨٨.

عقوبات عبر التاريخ :

وفى كل البلاد التى نزل بها اليهود، [1] تعرضوا لنقمة السكان وغضبهم وازدرائهم، يستوى فى ذلك تاريخهم القديم والوسيط والحديث، فقد أنزل العالم بهم ضربات قاصمة، وعقوبات صارمة، شملت التنكيل والطرد والسجن والقتل ومصادرة الأموال.. مما يطول الحديث فيه.

مأثرة يمتدح بها المسيحيون :

ويقرر أحد الكتاب الغربيين أن كل الأمم المسيحية اشتركت فى اضطهاد اليهود وإنزال مختلف العنت بهم، وكانت القسوة تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضا عليها [2].

أسباب العقوبات :

هذا ، والشىء الذى نؤكده بعد سرد طرف من العقوبات التى نزلت باليهود، فى مختلف العصور والأمم، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات لأسباب ، من أهمها : [3].

أنانيتهم وأطماعهم :

فقد سوغت لهم أنانيتهم أن العالم ملك لهم بكل من فيه وما فيه ، وأن عليهم متى حلوا فى أى دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة وأن يجمعوا أموالها بأى طريقة ، فإن المال هو معبود اليهود من قديم .

يقول «كارل ماركس» اليهودى الشيوعى الأول: «المال هو إله إسرائيل المطماع، وأمامه لا ينبغى لأى إله أن يعيش ، لأن المال يخفض جميع آلهة البشر، ويحولها إلى سلعة، المال هو القيمة العامة المكونة فى ذاتها لجميع الأشياء، لقد أصبح إله اليهود إلها دنيويا، هذا

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٣٣٩ وما بعدها بتصرف.

(٢) مقارنة الأديان ــ اليهودية ٧٩.

(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ٢ : ٣٤٠ وما بعدها بتصرف.

هو الإله الحقيقى لليهود».

ثم يقول: «ما هو الأساس الدنيوى لليهودية ؟ المصلحة العملية والمنفعة الشخصية ، إذن فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال، وبالتالى من اليهودية الواقعية العملية ، إنما يحرر نفسه أيضا » [1].

وأنانية اليهود وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل ، جعلهم محل نقمة العالم وغضبه، ولقد فطن بعض الزعماء العقلاء إلى خطر تغلغل اليهود فى بلاده، فأخذ يطردهم منها، ويحذر أبناء أمته من شرورهم.

ومن هؤلاء الزعماء العقلاء «بنيامين فرانكلين» أحد رؤساء الولايات المتحدة، فإنه ألقى خطابا سنة ١٧٨٩م قال فيه:

«أيها السادة: هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر هو «اليهود».

أيها السادة: حيثما استقر اليهود، نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف، إنهم لا يندمجون بالشعب، لقد أقاموا حكومة داخل الحكومة، وحيثما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا، كما حدث للبرتغال وأسبانيا...

إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور ، ففى أقل من مائة سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة، تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ، ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا..

إذا لم يستثن اليهود من الهجرة إلى الولايات المتحدة، فإنه لن يمضى أكثر من مائتى سنة ، ليصبح أبناؤنا عمالا فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود.

إنى أحذركم ـ أيها السادة ـ إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد، فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم ، إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة

---

(١) المرجع السابق : نقلا عن: كارل ماركس: ٥٥.

أجيال ، كما أن النمر لا يستطيع تغيير لونه . اليهود خطر على البلاد، وإذا دخلوها فسوف يخربونها ويفسدونها»[1]!

وللتعليق على هذا الخطاب نقول: ما أصدق ما توقعه « فرانكلين » لولا أنه قد أخطأ التقدير فى المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى بقرة حلوب لليهود ، فقد قدر هذه المدة بمائتى سنة، أى فى سنة ١٩٨٩م بينما استطاع اليهود أن يسخروا سياسة أمريكا وأسلحتها وأموالها وعلمها ونفوذها وخيراتها، لخدمتهم الخاصة فى مدة تقل عما توقعه بأكثر من خمسين سنة.

وهذا هو الدكتور « جون بتى » يصف التهود اليهودى المتغلغل فى أمريكا فيقول :

« إن رؤساء أمريكا ومن يعملون معهم ينحنون أمام الصهيونية.. كما لو كانوا ينحنون أمام ضريح له قداسته.. وإن الأقلية الإسرائيلية قد وصلت إلى درجة من القوة والطموح تهدد أمريكا بالخطر الدائم.. وتهددها بإثارة حرب عالمية ثالثة »[2].

غرورهم وتعاليمهم :

واليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وشعبه المختار، ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم إلى قسمين متقابلين:

قسم إسرائيلى، وهم صفوة الخلق، وأصحاب الحظوة عند الله.

وقسم آخر يسمونه : الأمم أو « الجوييم» أى غير اليهودى ومعنى « جوييم» عندهم، وثنيون وكفرة، وبهائم وأنجاس .

وقد أدى هذا الغرور والتعالى باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهوديا، وأن يغشوه ، ويكذبوا عليه، ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التى تمكنت من اليهود بقوله:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

---

(١) اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية : ١٣٠ إيليا أبو الروس.

(٢) الستار الحديدى حول أمريكا: نقلا عن لهذا أكره إسرائيل : ١٨٣ .

(٣) آل عمران: ٧٥.

إنها خطة الإنصاف للحق [1] وعدم البخس والجبن، يجرى عليها القرآن الكريم فى وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة آنذاك ، والتى لعلها حال أهل الكتاب فى جميع الأجيال، وذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم ، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة وبهذا الدين.. كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم، حتى فى معرض الجدل والمواجهة. فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناسا أمناء، لا يأكلون الحقوق، مهما كانت ضخمة مغرية.

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾

ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين المماطلين، الذين لا يردون حقا ـ وإن صغر ـ إلا بالمطالبة والملازمة .. ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم، بالكذب على الله عن علم وعن قصد :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

وهذه بالذات صفة يهود.. فهم الذين يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة. فالأمانة بين اليهودى واليهودى أما غير اليهود ـ ويسمونهم الأميين ، وكانوا يعنون بهم العرب، وهم فى الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود ـ فلا حرج على اليهودى فى أكل أموالهم ، وغشهم وخداعهم ، والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة ولا فعل ذميم !

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا ! وهم يعلمون أن هذا كذب! وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتا وبهتانا ، وألا يراعوا معهم عهدا ولا ذمة ، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم. ولكنها يهود! يهود التى اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها دينا ودنيا:

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

وكتب اليهود ـ ولا سيما التلمود ـ طافحة بالوصايا التى تبيح لهم أن يعاملوا غيرهم بمعاملة تخالف معاملتهم مع بعضهم، من ذلك ما جاء فى التلمود:

---

(١) في ظلال القرآن: ١ : ٤١٧ بتصرف.

«إذا خدع يهودى أحدا من الأمم ، وجاء يهودى آخر واختلس من الأممى بعض ما عنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن، فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التى أرسلها إليهما «يهواه»[1]. ويهواه هو ـ كما أسلفنا ـ إله اليهود!

ونتيجة لهذا الغرور والتعالى الذى تميز به اليهود، [2] وأهدروا بسببه كل حق أو كرامة لسواهم من الناس ، قام غيرهم من الأمم ليدافع عن حقه الذى سلبوه منهم وليوقع بهم أقسى العقوبات ، جزاء غرورهم الكاذب، وتعاليهم الباطل.

عصبيتهم وخيانتهم :

واليهود متعصبون متحزبون، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض، ولكن تجمعهم كراهية من ليس على ملتهم، كما يجمعهم الحقد على العالم بأسره، وقد أصبحت العزلة والعصبية والعنصرية طابع اليهود الذى لا محيد لهم عنه.

ويصف الدكتور «وايزمان» أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة فى اليهود بقوله:

وكان اليهود فى «موتول» ـ مسقط رأسه ـ بروسيا، يعيشون كما يعيش اليهود فى مئات المدن الصغيرة والكبيرة منعزلين منكمشين، وفى عالم غير عالم الناس الذين يعيشون معهم » [3] .

ولعل أصدق صورة للتحريض على العزلة والتمسك بها، ما ذكره «سلامون شختر» فى خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا ، حيث قال:

« إن معنى الاندماج فى الأمم هو فقدان الذاتية، وهذا النوع من الاندماج مع ما يترتب عليه من النتائج، هو ما أخشاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات» [4].

وقد تسبب عن عزلتهم وعصبيتهم أمور خطيرة، فقد نظروا إلى من سواهم من الأمم نظرة كلها عداء وريبة وحذر، وصار طابعهم فى كل زمان ومكان عدم الإخلاص لأية هيئة دينية أو دنيوية، وعدم الولاء للأوطان التى يعيشون فيها، يأكلون من خيراتها، وإنما يجعلون ولاءهم لجماعتهم ومصالحهم الخاصة دون غيرها، لأن اليهودى يهودى قبل كل

---

(١) الصهيونية العالمية : ٤٤.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٣٤٢ وما بعدها بتصرف.

(٣) مقارنة الأديان: اليهودية : ٣٩ نقلا عن : مذكرات وايزمان: ٣.

(٤) المرجع السابق: نقلا عن : الصهيونية والماسونية : ٤٦.

شيء، مهما تكن جنسيته، ومهما يعتنق من عقائد ومبادئ فى الظاهر، وإذا تعارضت جنسيته مع يهوديته ناصر يهوديته، وحاول أن يشيع الخراب والدمار فى الأمة التى هو فرد من أفرادها، خصوصا إذا أمن العقاب.. والصهيونية العالمية تأمر اليهود فى كل مكان أن يجعلوا ولاءهم لإسرائيل، وليس للدول التى يعيشون فيها.

تقول «جولدا مائير» :

«إن اليهود المقيمين خارج إسرائيل طوائف مشتتة ، تعيش فى المنفى ، وأنهم مواطنون إسرائيليون قبل كل شيء، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدول الجديدة، مهما تكن جنسيتهم الرسمية التى يسبغونها على أنفسهم، وإن اليهودى الإنجليزى الذى ينشد بحكم إنجليزيته نشيد « حفظ الله الملكة » لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت صهيونيا»[1].

وما أكثر الحوادث التى قام فيها اليهود بدور العيون والجواسيس على الأوطان التى يعيشون فيها لحساب أعدائها، وأظهر مثل على ذلك ما قام به اليهود المقيمون فى ألمانيا من خيانات لها، خلال الحرب العالمية الأولى، وكان ثمرة هذه الخيانات هزيمة ألمانيا ومنح اليهود جزاء غدرهم الوطنى وعد «بلفور» من الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧ م كما سيأتى.

وقد عدد «هتلر» خيانات اليهود لألمانيا، فذكر منها : « استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح ، وإفساد التعليم، والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية والسيطرة على دور النشر، والتدخل فى سياسة الدول لغير مصلحة ألمانيا، وفى القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا ، الذى احترفه عدد كبير منهم» .

ويختم «هتلر» حديثه الطويل عن اليهود بقوله:

وإذا قيض لليهودى أن يتغلب على شعوب هذا العالم، فسيكون تاجه إكليل جنازة البشرية، وعندما يستأنف كوكبنا السيار طوافه فى الأثير كما فعل منذ ملايين السنين ، لن يكون هناك بشر على سطحه.. لهذا أعتقد أنى تصرفت معهم حسبما شاء خالقنا ، لأنى بدفاعى عن نفسى ضد اليهودى ، إنما أناضل فى سبيل الدفاع عن عمل الخالق » [2] .

وإذن فعزلة اليهود، وعصبيتهم، وخيانتهم للأوطان التى آوتهم، كان جزاؤها العادل

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٣٤٤ نقلا عن محاضرة :اليهود ودولة إسرائيل.

(٢) المرجع السابق : ٣٤٥ نقلا عن «كفاحي» لهتلر .

ما حل بهم من دمار وتشريد ، خلال العصور المختلفة.

اضطهادهم لغيرهم متى تملكوا القدرة :

وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش بغيرهم، وملىء بالمجازر التى قاموا بها ضد الشعوب التى كانت لهم الغلبة عليها ،وقد ساعدهم على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل وإذلال لغيرهم ، متى واتتهم الفرصة.. ففى سفر التثنية ما نصه:

« حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما »[(١)] .

ولقد طبق اليهود هذه التعاليم أسوأ تطبيق فى كل أدوار تاريخهم.. فلقد قتلوا فى روما وحدها مائة ألف مسيحى سنة ٢١٤م بإيعاز من الإمبراطور «مارك أوريل» .

وما لنا نذهب بعيدا فى الاستشهاد على إجرامهم ، ومعارك فلسطين مازالت ماثلة فى أذهاننا.. يقول أحد الكتاب المعاصرين :

إن مذبحة «ديرياسين» كانت من أبشع المذابح التى ارتكبها اليهود، فقد قتلوا مائتين وخمسين إنسانا فى قرية صغيرة ، ومثلوا بأجسامهم، وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمامأعينهن..».

وحدث ما يشبه هذه المذابح فى كثير من مدن فلسطين ، كحيفا ويافا ، وقبية، وكفر قاسم...

وقد كتب المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » فى كتابه «دراسة التاريخ » يقول:

«لو أن بشاعة الخطيئة قيست بدرجة الجرم الذى يقترفه المذنب فى حق ما منحه الله من قدرة على التمييز، لكان اليهود أقل عذرا فيما اقترفوه عام ١٩٤٨م ولكن اليهود يعلمون بما اقترفوه ، وهكذا تتلخص مأساتهم الضخمة فى أن الدرس الذى تعلموه

---

(١) سفر التثنية: ٢٢ : ١٠ ــ ١٧ .

بمصادماتهم مع الألمان النازيين ، لم يجعلهم يحيدون عن أعمال النازى الشريرة ضد اليهود، بل دفعهم إلى مواصلة تلك الأعمال، وأن هذه الأعمال الشريرة التى ارتكبها اليهود ضد الفلسطينيين العرب اشتملت على تقتيل النساء والأطفال والرجال، وأدت إلى هروبهم من بلادهم » (١).

والحق أن مفاهيم اليهود الباطلة، وأنانيتهم الطاغية، وطباعهم اللئيمة، وأخلاقهم الفاسدة، وعصبيتهم الذميمة،وقلوبهم القاسية، واستباحتهم لقتل غيرهم، وإهدار كرامته كل ذلك جعلهم محل نقمة العالم وغضبه، وبسبب هذه الأخلاق المرذولة سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، ومن يمزقهم شر ممزق.

يقول المؤرخ اليهودى « يوسيفوس » :

«لا توجد أمة فى الأرض فى كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن، تحملت ما تحمل بنو إسرائيل من الكوارث والآلام ، على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم » (٢).

* * *

---

(١) دولة الإرهاب: ٣٩ علي محمد علي.

(٢) بلادنا فلسطين: ١ : ٦٥٧ مصطفى مراد الدباغ ط دار الطليعة بيروت ١٩٦٥ .

الفصل الثانى

دولة إسرائيل فى العصر الحديث

تمهيد ـ فتح بيت المقدس ـ وثيقة يونانية تسجل قول الروم فى وصف الفتح ـ العهدة العمرية ـ فلسطين إسلامية ـ اليهودية والصهيونية ـ مرحلة الأمانى والأحلام لإنشاء دولة إسرائيل: حركة المكابيين ـ حركة « باركوخيا» ـ مع الإمبراطور «جوليان» ـ مع أحد ملوك الفرس ـ توقف مساعى اليهود ـ دراسات للفكر اليهودى ـ جمعيات سرية ـ حركة العودة فى القرن السادس عشر ـ النواة الأولى للصهيونية الحديثة ـ فشل يهودى ـ الهرب إلى فلسطين ـ بعد الثورة الفرنسية ـ دستور يهودى خطير ـ حماية إنجلترا لليهود فى فلسطين ـ جمع التبرعات لتوطين اليهود فى فلسطين ـ نشر اللغة العبرية ـ عشاق الصهيونية ـ الهجرة الأولى ـ مرحلة الإعداد العملى : أول مؤتمر صهيونى ـ المؤتمر الثانى ـ المؤتمر الثالث ـ المؤتمر الرابع ـ المؤتمر الخامس ـ عزل السلطان عبد الحميد ـ وثيقة تاريخية ـ المؤتمر السادس ـ المؤتمر السابع ـ المؤتمر التاسع ـ المؤتمر العاشر ـ المؤتمر الحادى عشر ـ مؤتمرات أخرى ـ مستعمرات يهودية ـ اليهود فى الجيش البريطانى ـ وعد بلفور ـ اعتراف عصبة الأمم بالوعد ـ اليهود أصحاب هذا الوعد ـ فلسطين تحت حكم بريطانيا ـ كفاح عرب فلسطين ـ بداية الإرهاب اليهودى ـ تقرير «بولز» وأثره ـ تقرير «باركر» وأثره ـ مأساة التقسيم ـ قيام الدولة المجرمة ـ مراحل الحرب: المرحلة الأولى ـ المرحلة الثانية ـ المرحلة الثالثة ـ المرحلة الرابعة ـ أسباب الهزيمة: أهم الأسباب الداخلية ـ أهم الأسباب الخارجية ـ صور من الإرهاب.



تمهيد :

وإذا كنا قد عرفنا أنه ليس لليهود قومية ولا وطن .. لا فى الأرض المقدسة .. ولا فى الجزيرة العربية . وأن ما حل بهم من تشريد وما نزل بهم من كوارث عالمية إنما هو من صنع اليهود أنفسهم .. فإن ضرورة البحث تقتضينا الحديث عن دولة إسرائيل فى العصر الحديث وفق ما يلى :

فتح بيت المقدس :

بعد أن انتهى الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه من حروب الردة ، ووطد دعائم الإسلام فى جزيرة العرب، أعدّ جيشا لتطهير بلاد الشام [1]، وفيها أرض مقدسة عزيزة على المسلمين ، هى بيت المقدس .. وقدّر عدد ذلك الجيش الإسلامى بـ ٢٤ ألفا ، وقادته من صحابة رسول الله ﷺ..

وزحف جيش المسلمين شمالا، وحارب الروم فى معارك جانبية ، ومواقع ثانوية إلى أن وصل إلى حوران وأطراف دمشق.

أما الروم فقد تجمعوا لمعركة فاصلة فى وادى اليرموك الذى يفصل اليوم بين سوريا والأردن، ويجرى فيه نهر اليرموك الذى يصب فى نهر الأردن.

وقدم خالد الشام مددا لجيوش المسلمين، فوجد القادة يقاتلون الروم متساندين كل أمير على جيش ، ودار بينهم حديث قصير نزلوا بعده على رأى خالد، ووحّدوا القيادة ، وجعلوا خالدا قائدا للمعركة فى يومها الأول، فانتصر المسلمون وانهزم الروم شر هزيمة..

وبعد أن انتصر المسلمون فى اليرموك وجيش الروم عشرة أمثالهم، اتجهوا صوب دمشق وحاصروها ، ثم تم لهم فتحها.. وتقهقرت فلول الروم إلى الشمال ، فأثر ذلك على الوضع الحربى فى منطقة إيلياء ـ بيت المقدس ـ فبعد أن فرغ المسلمون من فتح الشام وجهوا جزءا من قواتهم إلى فلسطين، وفتحوا مناطق عديدة منها ، وحاصروا إيلياء فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه..

واستمات الروم فى الدفاع عن بيت المقدس، بيد أن الدين القيم وما يزرعه فى نفوس أتباعه المؤمنين من قوة خارقة وطاقة لا حد لها، قد انتصر على عناد الروم ، فدب اليأس إلى نفوسهم، وطلبوا التسليم لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحضر بنفسه ، وتسلم

---

(١) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية : ١٢٦ وما بعدها بتصرف.

المدينة من البطريرك صفرو نيوس.

وثيقة يونانية تسجل قول الروم فى وصف الفتح :

يقول صاحب «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية» : وحينما كنت قائدا لمعركة القدس سنة ١٩٤٨م اطلعت على كتاب يونانى مخطوط فى دير المصلبة، يذكر حادثة مجيء عمر بن الخطاب لتسلّم بيت المقدس من الروم المنهزمين.

وقد ترجم الأستاذ على رشدى نص الكلام اليونانى، فبدا مطابقا فى كثير من الوجوه لنصوص التاريخ الأخرى التى أشارت إلى حادثة تسليم بيت المقدس، ومع أن هناك بعض الخلاف فى التفصيلات، وعدم الدقة فى بعضها، إلا أنى أرى من الفائدة ذكر ما قاله الروم عن تلك الحادثة العظيمة:

« لما اشتد حصار جيوش المسلمين لبيت المقدس ٦٣٦م، أطل البطريرك صفرو نيوس على المحاصرين من أسوار المدينة، وقال لهم: إنا نريد أن نسلّم، لكن بشرط أن يكون التسليم لأميركم، فقدموا له أمير الجيش، فقال: لا، إنما نريد الأمير الأكبر، نريد أمير المؤمنين ، فكتب أمير الجيش إلى عمر بن الخطاب يقول: إن القوم يريدون تسليم المدينة، لكنهم يشترطون أن يكون ذلك ليدك شخصيا.

فخرج عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس، ومعه راحلة واحدة وغلام، فلما صار فى ظاهر المدينة قال لغلامه نحن اثنان والراحلة واحدة، فإن ركبت أنا ومشيت أنت ظلمتك ، وإن ركبت أنت ومشيت أنا ظلمتنى، وإن ركبنا الاثنان قصمنا ظهرها، فلنقتسم الطريق مثالثة. وأخذ عمر يركب مرحلة، ويقود الراحلة مرحلة، والغلام يركب مرحلة، ويقود مرحلة، وتمشى الراحلة أمامهما متخففة من حمل أحد مرحلة. وهكذا استمر عمر يقتسم الطريق مثالثة بين نفسه وبين غلامه وبين راحلته من المدينة، حتى بلغ جبلا مشرفا على القدس، [(١)] صادف أن كانت ببلوغه قد انتهت مرحلة ركوبه، فكبّر من فوق رحل الراحلة، [(٢)] ولما فرغ من تكبيره قال لغلامه: دورك ... اركب، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين! لا تنزلنّ ولا أركبنّ، فإنا مقبلون على مدينة فيها مدنية وحضارة، وفيها الخيول المطهمة المسرجة والعربات الذهبية ، فإن دخلنا على هذه الصورة ــ أنا راكب على الراحلة وأمير المؤمنين آخذ بمقودها ــ هزأوا بنا، وسخروا من أمرنا، وقد يؤثر ذلك على

---

(١) لم يذكر الكتاب مرور الخليفة بالجابية، حيث استقبله قادة المسلمين.

(٢) وسمي بذلك الجبل من يومئذ بجبل التكبير.

نصرنا، فقال عمر: دورك ... لو كان الدور دورى ما نزلت وما ركبت، أما والدور دورك فوالله ! لأنزلنّ ولتركبنّ ، ونزل عمر، وركب الغلام الراحلة،وأخذ عمر بمقودها. فلما بلغ سور المدينة وجد نصاراها فى استقباله، خارج بابها المسمى بباب دمشق،وعلى رأسهم البطريك صغرونيوس، فلما رأوه آخذا بمقود الراحلة وغلامه فوق رحلها، أكبروه وخروا له ساجدين. فأشاح الغلام عليهم بعصاه من فوق رحلها، وصاح فيهم: ويحكم، ارفعوا رءوسكم، فإنه لا ينبغى السجود إلا لله. فلما رفعوا رؤوسهم انتحى البطريك صفرونيوس ناحية وبكى فتأثر عمر وأقبل عليه ، يطيب خاطره، ويواسيه قائلا: لا تحزن، هوّن عليك ، فالدنيا دواليك، يوم لك ، ويوم عليك. فقال صفرونيوس: أظننتنى لضياع الملك بكيت..؟

والله! ما لهذا بكيت، وإنما بكيت لما أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية، ترق ولا تنقطع.. فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة، وكنت حسبتها دولة فاتحين، تمر ثم تنقرض مع السنين.

وخطب عمر فى تلك الجموع الحاشدة ، مستهلا خطبته بقوله: يا أهل إيلياء، لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا، ثم دعا البطريك صفرونيوس لتفقد كنيسة القبر المقدس «كنيسة القيامة» فلبى دعوته، وأدركته الصلاة وهو فيها، فالتفت إلى البطريك، وقال له: أين أصلّى..؟ فقال: مكانك صلّ.. فقال: ما كان لعمر أن يصلّى فى كنيسة القيامة، فيأتى المسلمون من بعدى ويقولون: هنا صلى عمر، ويبنون عليه مسجدا. وابتعد عنها رمية حجر، وفرش عباءته وصلى وجاء المسلمون من بعده، وبنوا على مصلاه مسجدا، وهو قائم على رمية حجر من كنيسة القيامة إلى يومنا هذا.

ثم سأل عمر البطريك صفرونيوس عن موضع المسجد الأقصى، فدله على عمود داود وكرسى سليمان «حيث مكان المسجد الأقصى» فوجده مغمورا بالقمامة، ففرش عمر «الظالم.. هكذا فى النص» ! عباءته، وأخذ ينزح فيها القمامة من مكان المسجد ويلقيها فى الأودية، واقتدى به قادة المسلمين ورؤساء الجند، حتى طهروه تطهيرا.. ثم بنى عليه مسجدا »[1].

يقول: وجدير بالذكر أننى رأيت مع النص الذى ذكرته رسما يمثل أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب حين دخوله القدس، وقد رسموه فى ثياب أهل الجزيرة العربية، ملتحيا داخلا من باب دمشق ـ باب العمود ـ ذا مهابة وجلال ووقار، ماشيا على قدميه فى تواضع

---

(١) بني المسجد أولا من الخشب.

المخلصين الأبرار، آخذا مقود الراحلة بيسراه، وإلى أعلى رافعا يمناه، محذرا الساجدين له من السجود لغير الله. كذلك يمثل الرسم الغلام أجرد أسود مستقرا فوق رحلها، رافعا فى وجوه القوم عصاه، مستنكرا سجودهم لمولاه صائحا فيهم «إنه لا ينبغى السجود إلا لله».

ومن أراد أن يعرف ما رواه المؤرخون من المسلمين فى ذلك ، فليرجع إلى ما ذكره ابن كثير فى ذلك، (١) حتى لا يطول بنا الحديث.

العهدة العمرية :

وأعطى أمير المؤمنين عمر الروم وثيقة أمان، عرفت بالعهدة العمرية، وهى لم تزل محفوظة فى بطريركية الروم الأرثوذكس فى القدس الشريف وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم: سقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم،ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبهم ، ولا شىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم،ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، فمن شاء منهم قعد ، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصدوا حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية. كتب ذلك سنة ١٥ للهجرة. شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان» (٢).

وقد كانت العهدة العمرية رمزا على تسامح الإسلام، وتجربة عملية لتطبيق عدل الإسلام، ومبادئه التى تقرر أنه لا إكراه فى الدين.

ويلاحظ فيها النص على منع اليهود من السكن فى إيلياء، بناء على طلب البطريرك،

---

(١) البداية والنهاية : ٧ : ٥٥ وما بعدها. فقد ذكر خلاصة الأقوال في ذلك.

(٢) خطر اليهودية : ١٣٠ ـ ١٣١ نقلا عن : الفاروق عمر.

ذلك لأن المسلمين حين فتحوا بيت.المقدس لم يجدوا فيها أحدا من اليهود، لأن النصارى قد حرّموا عليهم العيش فى المدينة المقدسة ، تخلصا من مؤامراتهم ودسائسهم..

فلسطين إسلامية :

وبعد فتح بيت المقدس تم للمسلمين فتح جميع المدن والمناطق الفلسطينية..

أما المسجد الأقصى وقبة الصخرة بشكلها الحاضر، فقد تم بناؤهما فى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد، وما زالا إلى يومنا هذا من أهم الآثار الإسلامية الخالدة.

وظلت فلسطين إسلامية، منذ الفتح العمرى سنة ١٥ هـ ــ ٦٣٦م حتى سنة ١٣٦٦هـ ــ ١٩٤٨م، باستثناء فترة الحروب الصليبية التى استطاع خلالها ــ ١٠٩٩م ــ ١١٨٧م ــ دعاة التعصب الغربى أن يستولوا على بيت المقدس، ويؤسسوا مملكة اللاتين بها.. وحينما اجتمعت كلمة المسلمين وعزموا على تطهير البلاد المقدسة، قادهم البطل صلاح الدين الأيوبى، وانتصروا فى الحرب التى كان أبرز معاركها فى حطين قرب بحيرة طبرية ٢٥ ربيع الثانى ٥٨٣ هـ ــ ١١٨٧م وبعد معركة حطين استولى صلاح الدين على بيت المقدس فى يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ــ ٢٠ أكتوبر ١١٨٧م وعامل البطل المسلم الفاتح العدو المنهزم معاملة كريمة، كتلك التى عوملوا بها على يد عمر بن الخطاب . ولم يعاملهم صلاح الدين بالمثل ويفتك بهم كما فعلوا بالمسلمين يوم فتحوا القدس وقتلوا ٧٠ ألفا من المسلمين العزّل من السلاح، بما فيهم الأطفال والنساء والشيوخ، ولقد اعترف أغلب المؤرخين الأجانب بتسامح البطل صلاح الدين وحسن معاملته للمُسلّمين، وكرمه مع الأسرى .

اليهودية والصهيونية :

تحدثنا من قبل عن اليهود واليهودية.. ونريد أن نبين العلاقة بين اليهودية والصهيونية، لأنها من الأمور المهمة فى هذا المقام ، فنقول:

الصهيونية (zionism) نسبة إلى جبل صهيون ، الذى يقع فى جنوب بيت المقدس وكان هذا الجبل يسكنه اليبوسيون الذين طردهم داود عليه السلام فترة من الوقت وسماه «مدينة داود»[١] .

---

(١) صموئيل الثاني : ٥ : ٧ ــ ٩ .

وأصبح صهيون مكانا مقدسا، لاعتقاد اليهود بأن الرب يسكن فيه. فقد ورد في المزامير: « رنّموا للرب الساكن في صهيون » [١].

وورد في دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة « الصهيونية » ما نصه:

« إن اليهود يتطلعون إلى افتداء إسرائيل ، واجتماع الشعب في فلسطين، واستعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء الهيكل، وإقامة عرش داود في القدس ثانية، وعليه أمير من نسل داود » [٢] .

وجاء في دائرة المعارف اليهودية تحت كلمة « الصهيونية» ما يلي :

« إن اليهود يبغون أن يجمعوا أمرهم، وأن يقدموا إلى القدس، ويتغلبوا على قوة الأعداء، وأن يعيدوا العبادة ـ أي مكان المسجد الأقصى ـ ويقيموا ملكهم هناك» [٣].

وعلى هذا فالصهيونية في أبسط تعاريفها هي استقرار بني إسرائيل في فلسطين، أي في جبل صهيون وما حوله، وهي كذلك تأييد هذا الاستقرار بالقول أو بالمساعدة المالية أو الأدبية .[٤] .

والصهيوني هو اليهودي الذي يؤثر أن يعيش في فلسطين، ، على غيرها من البلاد ، وهو كذلك من يساعد اليهود ماديا وأدبيا ليقيموا في فلسطين ويستقروا بها.

والصهيونية كفكرة وحركة تدعو اليهود إلى فلسطين ليست حديثة[٥] بل هي قديمة فقد زرعت بذورها ـ كما يقول بعض اليهود ـ يوم دكت مملكة إسرائيل على أيدي الأشوريين سنة ٧٢١ ق . م ثم نمت بعد خراب أورشليم الأول على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق . م وسوق اليهود أسارى إلى بابل .

ويقول أحد الكتاب : « إن اليهود الذين سبقوا إلى بابل هم الذين وضعوا بذور فكرة التعصب العنصري لليهود وهم أصحاب فكرة العودة إلى صهيون، ودعاة أسطورة شعب الله المختار».

ويقول «الفرد ليلتنتال» الكاتب اليهودي في كتابه « ثمن إسرائيل »:

---

(١) مزامير : ٩ ـ ١١ .
(٢) حقائق عن فلسطين : ١١٤ الهيئة العربية العليا لفلسطين ١٩٥٤ .
(٣) المرجع السابق.
(٤) مقارنة الأديان: اليهودية ١٠٢ بتصرف.
(٥) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٤٣٥ وما بعدها بتصرف.

« لقد بقيت فكرة دولة إسرائيل حية فى نفوس اليهود بترانيمهم ، ومنها المزمور ٣٧ حيث يقول واضعه:

«على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا عندما تذكرنا صهيون. على الضفاف فى وسطها علقنا أعوادنا . هناك سألنا الذين سبقونا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون. قلنا لهم: كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة، إن نسيتك يا أورشليم تنسنى يمينى، ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم أفراحى . يا بنت بابل : طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة .. » [١].

ويفرق الكتاب بين اليهودية والصهيونية، [٢] ، من حيث إن اليهودية ديانة والصهيونية حركة سياسية ترمى إلى قيام دولة يهود فى فلسطين، وعمل اليهود على ترسيخ هذه الفكرة فى أذهان الناس فى كل أقطار الأرض، رغبة فى نجاح خطتهم لإقامة دولة إسرائيل.. ثم العمل من أجل السيطرة التى يريدونها..

فهم يزعمون أن اليهودية ديانة لا دخل لها فى السياسة.، وسبب هذه الدعوى أنهم يعلمون أن اليهود موزعون فى كل أقطار الأرض إلا المملكة العربية السعودية.

وسكان أقطار العالم من اليهود هم طابور الصهيونية الخامس فى داخل تلك الأقطار ، يعملون للصهيونية فى دهاء وخبث، ولئلا تفطن الشعوب لصهيونيتهم ميزوا بينها وبين اليهودية، حتى لا يضار اليهود فى البلدان التى يقطنونها، وحتى يسهل عليهم التعامل مع أفراد الشعب ذلك التعامل الذى يمكنهم من التحكم فى سياسته وآدابه وصحافته، ووسائل إعلامه، وتجارته واقتصاده ، ويمكنهم من إفساد أخلاق الشباب وهم آمنون مطمئنون على نجاح خطتهم الهدامة، وبرامجهم التخريبية.

وكل يهودى على وجه الأرض ينتظر قيام دولة إسرائيل ، وإذا كان هناك خلاف فذلك لا يؤدى إلى اختلاف ، والخلاف أن المتدينين من اليهود ينتظرون قيام دولة إسرائيل على يد أمير من نسل داوذ ـ كما سبق ـ والصهيونيون يريدون قيامها وحسب، فلما قامت الدولة رحب بها كل يهودى، بما فيهم السامرة الذين لا يرضون أن يقال عنهم: إنهم يهود.

---

(١) هذه هي الصهيونية : ٢٣ إسرائيل سلسلة اخترنا لك رقم « ١ » .

(٢) اليهودية والصهيونية: ٦ وما بعدها بتصرف.

والسامرة يهود، وكتابهم المقدس واحد، على اختلاف بعض النصوص فى نسخة هؤلاء عن أولئك ، وهم يسكنون فى « نابلس » .

يقول الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار : ورأيتهم قبيل حرب حزيران «يونيو » ١٩٦٧ بيوم واحد، وقضيت معهم بضع ساعات اطلعت خلالها على توراتهم، والخلاف بينها وبين توراة اليهود فى بعض النصوص والأحكام.

وطبيعى ألا يفصحوا عن تأييدهم لدولة إسرائيل، لأنهم كانوا تحت حكم المملكة الأردنية الهاشمية التى وسعتهم بالفضل والعون والرعاية.

ومع ذلك لا تخفى حقيقتهم ، فكتابهم المقدس يعدهم بقيام الدولة التى ينتظرونها ، فإذا قامت على أى شكل من الأشكال فذلك يشير بأن ما يحلمون به سيتحقق ، لأن قيام دولة إسرائيل سيمهد لهم السبيل إلى تحقيق حلمهم الظافر الذى تحقق الجانب الأول منه.

وما دام جانب من الحلم قد تحقق بقيام الدولة، فإن الجوانب الأخرى ستتحقق لا محالة ، كما يعتقدون.

والخلاف بين السامرة واليهود خلاف نظرى لا يؤدى إلى الاختلاف فيما بينهم فى تحقيق حلم الصهيونية ، فكلهم متفقون عليه ، وينتظرون اليوم الموعود الذى تحقق بقيام دولة إسرائيل، وكان فريق يسعى لتقويتها حسب مفهومه من الدولة أو «المملكة» المنتظرة بالنسبة للسامرة، وإن كانت أسفار هؤلاء وأولئك اليهود تذكر كلمة «مملكة» التى استعملها ساسة إسرائيل الصهيونيون عند قيام دولتهم ، إذ زعموا أن هذه الدولة بعث لمملكة داود.

وخلاصة القول : أن اليهودية صهيونية ، وكل يهودى صهيونى، سواء أكان من المتدينين أم من غير المتدينين ، وآية ذلك حاخامو اليهود الذين عملوا لقيام دولة إسرائيل، وابتهجوا واحتفلوا بقيامها، ومعهم رعاياهم من اليهود المتدينين :

مرحلة الأماني والأحلام لإنشاء دولة إسرائيل :

ولكى نعلم مقدار الجهد الذى بذلته الصهيونية للاستيلاء على فلسطين، منذ خراب أورشليم الأول ــ كما أسلفنا ــ إلى أواخر القرن التاسع عشر.. وهو يمثل مرحلة الأمانى والأحلام لإنشاء دولة إسرائيل.. نسوق ما يأتى:

حركة المكابيين :

في سنة ١٦٣ ق م قامت حركة المكابيين بزعامة الكاهن اليهودى «متاثيا» وأولاده ، وكان هدفها ــ كما عرفنا ــ إنشاء دولة مستقلة لليهود. واستطاعت أن تنفرد بالحكم لفترة من الزمان، إلا أنها لم يكتب لها البقاء، فقد قضى عليها الرومان قضاء نهائيا سنة ٣٧ ق م.

وهى على كل حال ثورة يتفاخر بها اليهود، فابن جوريون يقول عنها:

«إن هذه الثورات التى قام بها المكابيون قبل الميلاد، وفرت لليهود الحرية السياسية فى القرن العشرين»

حركة « باركوخيا » :

وفى سنة ١١٧م تزعم «باركوخيا» اليهودى حركة تدعو اليهود إلى التجمع والتكتل لإنشاء دولة لهم بفلسطين، تعيد بناء الهيكل، ويكون ملكها من نسل داود عليه السلام، إلا أن هذه الحركة رغم ما أثارته من حماس لم يكتب لها النجاح، بل قضى عليها قضاء تاما.

مع الإمبراطور « جوليان » :

وفى سنة ٣٦١م استعمل اليهود شتى الوسائل مع الإمبراطور «جوليان» الرومانى ليعيد لهم بناء معبدهم، ويمنحهم الاستقلال، وقد مناهم «جوليان» بإجابة مطالبهم، إلا أن المنية عاجلته قبل أن يفى بعهده معهم.

مع أحد ملوك الفرس :

وفى خلال القرن الرابع وعدهم أحد ملوك الفرس أن يمنحهم الحرية إذا انضموا تحت لوائه، ولكنه لما رأى منهم مخادعة وغدرا اضطهدهم وأذلهم.

توقف مساعى اليهود:

ثم توقفت مساعى اليهود لتحقيق حلم العودة خلال القرون الوسطى ، بسبب الاضطهادات التى نزلت بهم ، وانعدمت مشاريعهم ، وتركزت جهودهم فى تثبيت فكرة العودة فى نفوسهم عن طريق التضرع والصلاة فى المعابد ، وعملوا على ترسيخ عاداتهم القديمة، وطقوسهم الخاصة فى نفوس الأفراد ، وساعدهم على ذلك أسلوب حياتهم المنطوى فى الأحياء الخاصة بهم، والتى عاشوا فيها مئات السنين.

دراسات للفكر اليهودى :

وفى هذه الأجواء المنعزلة لمعت أسماء عدد من مفكريهم وأحبارهم وكهانهم.. الذين وضعوا دراسات للفكر اليهودى، وكان من أبرز هؤلاء « اليعازر كالير» فى القرن السابع ، و«سعاد غاؤون »من سنة ٨٨٢ م ـ ٩٤٢م و «موسى بن ميمون» من سنة ١١٣٥م ـ ١٢٠٤م و «إسحاق لوريا » من سنة ١٥٣٤م ـ ١٥٧٢م وغيرهم كثيرون.

أما أسباب خمود النشاط اليهودى ، وتوقف العمل المنظم، وتجميد المساعى الجدية فترجع إلى عدم ملاءمة الظروف السياسية والاجتماعية، كما قال بعض مفكريهم.

جمعيات سـرية :

وقد استغلوا هذه القرون لإثبات وجودهم عن طريق عشرات الجمعيات والمنظمات التى شكلوها فى هذه المرحلة من تاريخهم ، والتى اتصفت بتبنى سياسة دفاعية عامة .

وأشهر هذه الجمعيات التى عرفتها أوربا «الكابالا» و «الماسونية» و «فرسان المعبد» وجماعة «الصليب الوردى» وغيرها من الهيئات السرية التى أوجدها اليهود لخدمتهم والعمل لمصلحتهم (١).

حركة العودة فى القرن السادس عشر :

ثم عاد لليهود بعض نشاطهم خلال القرن السادس عشر، ففى سنة ١٥٣٢ م قامت حركة «دافيد روبين» وتلميذه «سولومون مولوخ» وكان هدف هذه الحركة تجميع اليهود وإعادتهم إلى فلسطين، ليقيموا دولة لهم فيها.

وفى سنة ١٥٦٦م طلب اليهودى الأسبانى «دوم جوزيف ناس» من السلطان العثمانى ، أن يبيعه مساحة من الأراضى القريبة من بحيرة طبريا بثمن مرتفع ، وكان مقصده من وراء هذا المطلب إقامة أول مستعمرة يعمرها اليهود ويحتلونها مهاجرين إليها من أنحاء العالم المضطهدين به، إلا أن السلطان العثمانى ـ كما سيأتى ـ رفض طلبه رفضا نهائيا (٢).

---

(١) إسرائيل: فكرة ـ حركة ـ دولة : ٣٣ هاني الهندي ومحسن إبراهيم .

(٢) الصهيونية العالمية وأرض الميعاد : ١٣٤ .

النواة الأولى للصهيونية الحديثة:

وفى سنة ١٦٠٤ م قامت فى بريطانيا حركة «منشة بن إسرائيل» التى كان هدفها جمع يهود العالم فى بريطانيا، ثم تهيئة موطن لهم فى فلسطين يهاجرون إليه بعد ذلك، ويقيمون به.

ويبدو أن هذه الحركة كانت النواة الأولى للصهيونية الحديثة التى وجدت لها أرضا خصبة، هى بريطانيا، ترعرت فيها ونمت ، واستطاعت خلال ثلاثة قرون أن تسخر جميع قوى الإنجليز من أجل تحقيق أهداف اليهود (١).

فشل يهودى :

وفى سنة ١٦٢٦م قامت حركة عنيفة بزعامة «شبناى ليفى» تولى أفرادها الدعوة بنشاط لإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، وزعم قائدها أنه هو المسيح المنتظر، إلا أن هذه الحركة رغم تعصبها ونشاطها فشلت فى مساعيها، بل أخذ بعض اليهود يحاربها ويدعو بنى قومه إلى تقبل العيش فى البلاد المستقرين فيها، وأن يكتفوا بالجانب الدينى من يهوديتهم، ويهملوا الجانب السياسى منها.

الهرب إلى فلسطين :

وفى سنة ١٦٦٣م زاد اضطهاد اليهود فى ألمانيا، وإيطاليا ، وهولندا، ومصر..فهرب عدد كبير منهم إلى فلسطين، واستقروا بها كأفراد مهاجرين خاضعين لنظم الدولة العثمانية التى كانت فلسطين ولاية من ولاياتها .

بعد الثورة الفرنسية :

وبعد قيام الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ زاد نشاط اليهود فى المطالبة بإنشاء وطن قومى لهم بفلسطين، وذلك لأن الثورة الفرنسية كانت من صنع أيديهم ـ كما صرحوا بذلك فى بروتوكولاتهم ـ لأن موجة الاضطهادات التى كان الشعب الفرنسى ينزلها بهم قبل الثورة ، خفت حدتها أو انعدمت بعد قيام الثورة، بل إن اليهود بدأوا يتحكمون فى فرنسا بعد ذلك ، مما حمل «نابليون بونابرت » أن يوجه نداء إلى يهود العالم يدعوهم فيه إلى الإنضواء تحت لوائه ، لكى يعيد إليهم مجدهم الضائع ، ويرد إليهم

---

(١) خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية : ١٥٨.

حقوقهم المسلوبة منذ آلاف السنين.

وقد نشر هذا النداء بالجريدة الفرنسية بتاريخ ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٩ م ولكن «نابليون» توالت عليه الأحداث فلم يستطع أن يفعل لهم شيئا، فضلا عن أنه كان فى الحقيقة يقصد من وراء هذا النداء إبعادهم عن فرنسا، بعد أن لمس تحكمهم فى كل مرافقها، وبعد أن رآهم قد تمادوا فى إثارة حماسة اليهود لإعادة بناء دولتهم الغابرة فى فلسطين .

دستور يهودى خطير :

ففى سنة ١٧٩٨ م ألقى أحد زعمائهم فى فرنسا خطابا مثيرا تحدث فيه عن آمالهم وآلامهم وطالبهم فيه بالعمل الجاد من أجل العودة إلى فلسطين.

وقد نقل المؤرخ اليهودى «إيلى ليفى أبو عسل» فى كتابه « يقظة العالم اليهودى » [١] نص هذا الخطاب الذى يعتبر ما ورد فيه دستورا يهوديا خطيرا سبق مقررات حكماء صهيون التى سبق ذكرها.

ونص الخطاب :

«أيها الإخوان: لا يغربن عن ذهنكم أن زفراتكم وتنهداتكم صعدت فى خلال العصور إلى عنان السماء لشدة ما رزحتم تحت أثقال الجور والاضطهاد ، فهلا تنوون أن تتخلصوا نهائيا من الحالة المقرونة بالإذلال والانحطاط التى وضعكم فيها أناس من الهمج؟ إننا نرى الأزدراء مرافقا لنا فى كل مكان، فالبدار البدار ، فقد حان الوقت لتحطيم سلاسل الخسف والإهانة التى طوق العدو بها أعناقكم، وخلع النير الذى لا يطاق احتماله. نعم قد آن الأوان لنهوضنا واحتلال المركز اللائق بنا بين أمم العالم. فهيا بنا أيها الإخوان لتجديد هيكل أورشليم. إن عددنا يبلغ ستة ملايين منتشرين فى جميع أقطار العالم. وفى حوزتنا ثروات طائلة واسعة، وممتلكات عظيمة شاسعة، فيجب أن نتذرع بكل ما لدينا من الوسائل لاستعادة بلادنا ، إن الفرصة لسانحة ومن واجبنا أن نغتنمها.

إنه يجب العمل بالوسائل التالية لتحقيق هذا المشروع المقدس، وهى إقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى البلاد التالية وهى : إيطاليا. وسويسرا. والمجر. وبولونيا. وروسيا. وبلاد الشمال. وبريطانيا العظمى . وأسبانيا، وبلاد ولس. والسويد. وألمانيا. وتركيا . وآسيا. وأفريقيا.

---

(١) يقظة العالم اليهودى: ١٠١ ط النظام بمصر ١٩٢٤.

فاللجنة الممثلة لليهود المقيمين فى هذه البلدان كلها يمكنها أن تبحث فى مهمتها ، وتتخذ ما تراه من القرارات فى صددها. ويكون من الواجب على جميع اليهود أن يقبلوا هذه القرارات ويجعلوها بمثابة قانون لا مندوحة لهم من الخضوع له.

أما البلاد التى تنوى قبولها باتفاق مع فرنسا فهى إقليم الوجه البحرى من مصر، مع حفظ منطقة واسعة المدى ، يمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ، ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر. فهذا المركز الملائم أكثر من أى مركز آخر فى العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة الآتية من البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الشمالية والجنوبية . ولا شك فى أن بلاد أثيوبيا والحبشة لا تتأخر عن إقامة علاقاتها التجارية معنا بملء الرضا والارتياح . وهى البلاد التى كانت تقدم للملك سليمان الذهب والعاج والحجارة الكريمة.

ثم إن مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا. وموقع بلادنا على البحر المتوسط يمكننا من إقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وغيرها من بلدان أوربا.

ولما كانت بلادنا فى موقع متوسط من العالم فإنها ستصبح كمستودع لجميع الحاصلات التى تنتجها الأراضى الغنية.

أما الاتفاقات والترتيبات الأخرى الخاصة باقتراحاتنا على الباب العالى فلا يجوز نشرها علنا وعلى رؤوس الأشهاد. وسنكون مضطرين لإبقاء هذه المسألة منوطة بحسن إدارة الأمة الفرنسية.

أيها الإخوان: يجب ألا تدخروا وسيلة أو تضحية فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية، أى الرجوع إلى بلادنا، حيث يمكن أن نعيش فى ظل شرائعنا الخاصة. وأن نجدد البلاد المقدسة التى اشتهر أجدادنا بما بذلوه فى سبيلها من التضحية، وما أظهروه من الشجاعة والشهامة، فكأنى أراكم الآن ونار الإيمان تضطرم فى صدوركم. فيأيها الإسرائيليون: لقد قربت الساعة التى ينتهى فيها أجل حالتكم التعسة. إن الفرصة الآن سانحة فحاذروا أن تفلت من أيديكم » .

إن هذا الخطاب ـ كما يقول الأستاذ عبد الله التل ـ (١) كان يمهد الطريق أمام المرحلة الثانية للصهيونية العالمية بقيادة هرتزل بعد قرن كامل على صدور هذا الخطاب.

---

(١) خطر اليهودية: ١٥٩ هامش.

ولا شك أن القارئ قد وقف عند الفقرة المتعلقة بأطماع اليهود، [1] والتى تشمل الوجه البحرى من مصر، ومعلوم أن الوجه البحرى هو حياة مصر، واليهود يطمعون فى انتزاع الحياة من شعب مصر باغتصاب الوجه البحرى ومياه النيل لإرواء صحراء النقب، وتبدو غفلة الأمة العربية واضحة من طبع مثل هذا الكتاب الذى يحتوى على مثل هذه التصريحات اليهودية الخطيرة ونشره فى قلب الوطن العربى .. وما هى الأمور التى اتخذتها الأمة تجاه هذا المخطط الصهيونى ؟ !

حماية إنجلترا لليهود فى فلسطين :

وفى خلال القرن التاسع عشر واصل اليهود مساعيهم الكبيرة، واستعملوا وسائلهم المتنوعة من أجل استيطان فلسطين [2] .

ففى سنة ١٨٤٠ سعى يهود أوربا الغربية للحصول على وعد حكومى من بريطانيا لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فقد أرسل اللورد « شافتيرى » مذكرة إلى وزير خارجية بريطانيا أثناء انعقاد مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠م يطالبه فيها بأن تتعهد بريطانيا بإنشاء دولة لليهود فى فلسطين.

وقد نتج عن هذه المساعى الحثيثة أن أعلنت إنجلترا حمايتها لليهود المقيمين فى فلسطين، وأرسل رئيس وزراء إنجلترا حينذاك خطابا بذلك إلى القنصل البريطانى بالقدس، وبعد سنة واحدة على هذا المؤتمر، عقد مؤتمر آخر فى دبلن كان من بين مقرراته «طلب التدخل البريطانى فى سبيل استيطان اليهود بفلسطين».

جمع التبرعات لتوطين اليهود فى فلسطين:

وفى سنة ١٨٥٤م قام الحاخام الأكبر الإنجليزى ومعه الوزير اليهودى السير « موسى مونتغيورى» بحملة ضخمة لجمع التبرعات لشراء أرض فى فلسطين يستوطنها اليهود ..

«وموسى مونتغيورى» من كبار أثرياء اليهود، وقد بذل الملايين من أمواله فى سبيل توطين اليهود فى فلسطين ، كما استعمل نفوذه المالى والأدبى من أجل ذلك ، وقد زار فلسطين عدة مرات ليطلع على أحوال اليهود فيها، وليساعدهم بشتى أنواع المساعدات،

---

(١) المرجع السابق: ١٦١ ويلاحظ أن أغلب ما ورد في هذا الخطاب قد تحقق ، وخاصة الجزء الخاص باستغلال الحبشة وأفريقيا لصالح اليهود !

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٤٢ وما بعدها بتصرف.

وقد تمذهب بمذهب الأرثوذكس ليتمكن من خدمة اليهودية من وراء ستار.

واشترى مزرعة ضخمة للحمضيات قرب مدينة يافا ، واستخدم للإشراف عليها عمالا من اليهود فقط، وشرع فى بناء عشرات المساكن الخاصة باليهود فى مدينة القدس ، وقد عرفت هذه المساكن باسم « ميشوريم » وكان ذلك فى سنة ١٨٥٨ م.

وتبعته فى نفس الوقت أسرة «روتشيلد» المشهورة بغناها.. (١) فاشترت الأراضى الواسعة فى فلسطين، وقدمتها كهدايا إلى يهود أوربا الشرقية ، كى يستوطنوا فلسطين، وهناك كثير من أغنياء اليهود بذلوا الملايين من أموالهم من أجل توطين اليهود فى الأرض المقدسة.

وساعد على تحقيق ذلك أقطاب اليهود الإنجليز مثل: دزرائيلى ولونس أوليفانت، ودزرائيلى اليهودى الذى تظاهر باعتناق المسيحية قد وصل إلى رئاسة الوزراء البريطانية فى عهد الملكة فكتوريا ١٨٧٥ م وهو الذى سرق حصة مصر فى أسهم قناة السويس بأن اشتراها بأربعة ملايين من الجنيهات تسلمها الخديوى إسماعيل لتسديد ديونه. وكانت تساوى أضعاف هذا المبلغ . وحينما عجزت الحكومة البريطانية عن دفع المبلغ اقترضته من المليونير اليهودى روتشيلد مقابل عمولة قيمتها ١٠٠ ألف جنيه استرلينى. وكان هدف دزرائيلى «اللورد بيكون نسفيلد » هو خدمة اليهود بالدرجة الأولى، وخدمة الإنجليز بالدرجة الثانية، ولهذا فهو يعد من الشخصيات اليهودية البارزة التى لعبت دورا خطيرا فى إحياء آمال الشعب اليهودى وتقوية أحلامه. وبالنسبة لتظاهره باعتناق المسيحية فإنى أنقل رأى مؤرخ يهودى فى مسألة اعتناق دزرائيلى المسيحية أو بقائه على اليهودية:

« فإذا أراد الإنسان سبر غور عواطف بيكون نسفيلد وجس نبضه ونزعاته وميوله، لمعرفة ما إذا كان هذا الرجل يتغذى خفية بلبان عقيدته الأولى، وإذا كان اتخذ المسيحية توصلا لاكتساب المعالى، وتسنم ذرا المجد، وتحقيق المطامح الكبرى التى كان يصبو إليها وهو فى ريعان شبابه، فعليه بمطالعة تاريخ حياته، فهو المرجع الوحيد الذى لا يوارى ولا يداجى ، وهو بمأمن من الروح الحزبية، والأغراض الدينية، فالحوادث التى تخللت حياته أبانت لنا أن روح هذا الرجل كانت تحوم دائما حول اليهود، وتفيض بالعطف عليهم،

---

(١) انظر : حكومة العالم الخفية: ٤٧ وما بعدها: شريب سبيريد وفيتش . ترجمة مأمون سعيد. دار النفائس ط سادسة.

وكانت الأوتار الحساسة الكامنة أبدا فى مزاجه وطبيعته تهتز لهم اهتزازا شديدا ، وكان يرقب حركاتهم وسكناتهم فى غدوّه ورواحه، إلا أن ذلك ما كان ليمنعه من تأدية فرائضه الدينية المسيحية » [1] .

نـ ـــر اللغــة العبرية :

وفى سنة ١٨٦٩م قامت فى فرنسا « منظمة الأليانس الإسرائيلية» التى كان هدفها نشر اللغة العبرية بين يهود العالم، حتى يشب أطفالهم مشبعين بها، ومتحمسين للعمل من أجل العودة إلى فلسطين ، وقد نجحت هذه الفكرة نجاحا كبيرا فى نشر اللغة العبرية، واستطاعت أن تنشىء عدة مدارس ومستعمرات لليهود فى فلسطين.

عشاق الصهيونية :

وفى سنة ١٨٨٢م وبعد المذابح الكبيرة التى نزلت باليهود فى روسيا قاموا بإنشاء جمعية « عشاق الصهيونية » التى من أهمها ترحيل اليهود إلى فلسطين.. ويقول «وايزمان» فى مذكراته عن هذه الجمعية:

«إن الحركة الصهيونية فى حقيقتها وجوهرها نشأت فى روسيا، وإن يهود روسيا كانوا العمود الفقرى للكيان اليهودى فى فلسطين، منذ قيام الحركة »[2] .

الهجرة الأولى :

وعن طريق هذه الجمعية تسللت إلى فلسطين الدفعة الأولى من يهود روسيا، حيث أنشأوا أولى المستعمرات الزراعية بالقرب من يافا، وأطلقوا عليها اسم «ريشون ليزيون» أى الأولون فى صهيون ، ويسميها ابن جوريون الهجرة الأولى .

هذه هى أهم الجهود التى بذلها اليهود عبر القرون، حتى نهاية القرن التاسع عشر، وقد علق عليها بعض الكاتبين فقال:

« فى هذه المرحلة تكشف النشاط اليهودى ورصدت الأموال ، وبدأت الدفعة الأولى من المهاجرين اليهود تفد إلى فلسطين ، إلا أن العمل فى هذه المرحلة لم يكن منظما مدروسا ، بل قام ـ فى مجموعه ـ على أسس فردية ، أو على شكل جمعيات لم تنظم

---

(١) يقظة العالم اليهودي: ١٩٤ إيلي ليفي أبو عسل ط النظام بمصر ١٩٢٤م.

(٢) مذكرات وايزمان : ١٤.

جديا بالنسبة للمرحلة، وقد اعتبر المؤرخون أن مرحلة رسوخ الفكرة انتهت بظهور كتاب «الدولة اليهودية» لهرتزل، ونجاح المؤتمر العالمي في « بال » بسويسرا سنة ١٨٩٧م[١] » .

مرحلة الإعداد العملي :

وأما عن أهم الجهود التى قامت بها اليهودية العالمية فى مرحلة الإعداد العملى والتحضير الفعلى لإعلان دولة إسرائيل.. فإننا نذكر ما يلى :

أول مؤتمر صهيونى :

فى ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٩٧ م انعقد أول مؤتمر صهيونى فى مدينة «بال» [٢]. بسويسرا، برئاسة «تيودور هرتزل» وحضره مندوبون عن يهود العالم بلغ عددهم ١٩٦ عضوا، اجتمعوا حول مائدة واحدة، وتدارسوا الوسائل الكفيلة بإعادة دولة إسرائيل، وقد حدد «هرتزل» أهداف هذا المؤتمر بقوله:

«إننا اجتمعنا هنا لكى نضع حجر الأساس للمبادئ التى تجمع الشعب اليهودى ، ولدولة يهوذا التى زالت منذ عشرين قرنا».

واستمر المؤتمر منعقدا لمدة ثلاثة أيام ، ثم خرج المؤتمرون بعدها بقرارات .. من أهمها القرار التالى :

«إن أمانى الصهيونية هى إنشاء وطن للشعب اليهودى يعترف به من الناحيتين: الرسمية والقانونية، ويصبح الشعب اليهودى بإنشائه فى مأمن من الاضطهاد، على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين » .

وكان من القرارات التى اتخذوها تشجيع اشتراك كافة يهود العالم فى أعمال المؤتمرات القادمة، وتقوية الحركة الزراعية فى فلسطين، والإكثار من شراء الأراضى التى يستملكها اليهود فى الأرض المقدسة ، وإنعاش الثقافة العبرية والمشاعر العنصرية بين يهود العالم، والقيام بمساع لدى مختلف الحكومات لتأييد الكفاح اليهودى ماديا وأدبيا.

وعقب إعلان هذه القرارات كتب «هرتزل» مقالا فى صحيفته التى كان يصدرها فى النمسا يقول فيه:

---

(١) إسرائيل : فكرة ــ حركة ــ دولة : ٤٩ .

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٤٤ وما بعدها بتصرف.

«لو طلب إلىّ تلخيص أعمال مؤتمر «بال» فإنى أقول ، بل أنادى على رؤوس الأشهاد أنى أسست الدولة اليهودية وقد يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك ، ولكن العالم بعد خمسة أعوام، أوبعد خمسين عاما، سيرى من غير شك ، قيام الدولة اليهودية، حسبما تمليه إرادة اليهود بأن تنشأ لهم دولة»

وبعد عشرين عاما من الانعقاد حصل اليهود على وعد «بلفور» ـ كما سيأتى ـ وكذلك بعد خمسين عاما جاء قرار التقسيم لفلسطين بين العرب واليهود سنة ١٩٤٧م.

ولقد تفاخر اليهود كثيرا بمجهودات «هرتزل» واعتبروه مؤسس الصهيونية الأكبر، وفيه يقول «وايزمان» أول رئيس لدولة إسرائيل:

« إن عظمة «هرتزل » تتجلى فى اضطلاعه بدور العمل الإيجابى، الذى يمثل الإقدام والتفانى فى خدمة الفكرة الصهيونية » .

ثم توالت المؤتمرات بعد ذلك سنويا لخدمة الصهيونية ، وتمكينها من استعمار فلسطين . .

المؤتمر الثانى :

ففى سنة ١٨٩٨م عقد المؤتمر الثانى، وحضره ٣٤٩ عضوا مندوبين عن يهود العالم، وكان من بين هؤلاء الأعضاء عدد كبير من رجال الدين . .

وكان من أبرز مقرراته تأسيس شركة كبيرة تتولى شراء الأرض بفلسطين، وتقوم بتوزيعها على المهاجرين إليها، وتشجيع الجمعيات التى تعمل على نشر اللغة العبرية فى العالم.

المؤتمر الثالث :

وفى عام ١٨٩٩م عقد المؤتمر الثالث بمدينة «بال» أيضا وحضره مئات اليهود، وكان من أهم مقرراته : تنظيم الدعاية الصهيونية فى دول أوربا بصفة خاصة، والتوسع فى شراء الأرض بفلسطين، والإكثار من بناء المستعمرات الخاصة بالعمال.

المؤتمر الرابع :

وفى سنة ١٩٠٠م عقد المؤتمر الرابع بلندن، وكان القصد من وراء انعقاده فى لندن،

الاتصال المباشر بالحكومة الإنجليزية، وتكليفها بأن تضغط على السلطان عبد الحميد، ليسهل لليهود شراء ما يريدون من الأراضى فى فلسطين، وذلك لأن السلطان عبد الحميد عندما رأى توسع اليهود فى شراء الأراضى بفلسطين أخذ يضيق عليهم، ويضع العراقيل فى طريقهم.

وفى هذا المؤتمر تقرر إنشاء «الصندوق القومى لليهود» وكان هدفه العمل على شراء الأراضى بفلسطين، أو على حد التعبير العجيب الذى يستعملونه «إعادة شراء الأراضى بفلسطين »، « ولقد كان هذا الصندوق من أنشط الإدارات التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية» (١).

ولقد وصف ابن جوريون ما حققته اليهودية العالمية من مكاسب حتى نهاية القرن التاسع عشر فقال:

كان لنا فى فلسطين فى نهاية القرن التاسع عشر ١٣ مستعمرة جديدة، وقد زرعت البذور الأولى للدولة اليهودية، ولكن العنصر الأساسى ، وهم العمال اليهود، لم يكن متوفرا تماما، وقد سد هذا النقص بطليعة «الدفعة الثانية» من المهاجرين، التى وصلت فى السنين الأولى من القرن الحالى، وعندها وضع الأساس الثابت للدولة ، إذ تشكلت فى فلسطين قوة يهودية مستقلة ذات طابع اقتصادى عسكرى وثقافى»(٢).

ويصف «هيرمان شابيرو» ما حققه اليهود من أطماع فى فلسطين، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، فيقول:

« كانت نهاية القرن الماضى بداية بناء الدولة، فلقد وضعنا حجر الأساس لبيت إسرائيل، ثم يأتى أبناؤنا بعدنا ، فيبنون الجدران، وبعد ذلك يضع أحفادنا الأبواب».

وفى مطلع القرن العشرين بدأت الصهيونية تتخذ شكلا عمليا واسعا ومدروسا، لتكوين دولة إسرائيل فى فلسطين.

المؤتمر الخامس :

ففى سنة ١٩٠١م عقد اليهود مؤتمرهم السنوى الخامس فى مدينة «بال» بسويسرا، وحضره ـ أيضا ـ مئات من اليهود، وكان من أهم قرارات هذا المؤتمر، الموافقة على إنشاء

(١) نظام الحكم في إسرائيل: ١٣.

(٢) الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل : المقدمة: ٨ سنة ٥٣ ـ ٥٤.

جامعة عبرية فى فلسطين، لنشر الثقافة اليهودية بين سكانها اليهود، وقد تبنى هذا الاقتراح وتكفل بتنفيذه الدكتور «حاييم وايزمان» الذى كان يعتبر العقل المفكر للحركة الصهيونية فى ذلك الوقت.

وفى خلال هذا العام ـ أيضا ـ أعاد اليهود مساوماتهم للسلطان عبد الحميد، وأخذوا يقدمون له شتى المغريات ، لإقناعه بتأسيس الدولة اليهودية فى فلسطين ، وذهب إليه زعيمهم «هرتزل» وبصحبته عدد من شيوخ صهيون، وعرضوا عليه المساعدات المالية الضخمة، لإنقاذ الإمبراطورية من التدهور المالى ، وتمويلها بما تحتاج إليه من أموال بعد ذلك، فى نظير السماح لهم بإنشاء دولة يهودية بفلسطين.

ولكن السلطان عبد الحميد رغم حاجته الملحة إلى المال، رد على « هرتزل » وزمرته بما يخيب آمالهم، إذ كتب إليهم يقول:

أنصح الدكتور «هرتزل» بألا يتخذ أية خطوات أخرى فى هذا الموضوع ، ولا يسعنى أن أسمح لتحويل شبر واحد من الأرض لليهود، لأن هذه الأرض ليست ملكا شخصيا لى، لأتصرف فيها أنا، بل هى ملك الشعب ، وقد كافح شعبى وحارب من أجل هذه الأرض، فأخضبها بدمائه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذامزقت أوصال إمبراطوريتى، فإنهم يحصلون على فلسطين مجانا، إنهم لا يستطيعون اقتطاع شىء من هذه الإمبراطورية، إلا إذا تحولت إلى جثة هامدة، إننى لا أستطيع الموافقة على تشريح جسم بلادى ، وهى لا تزال حية .. »[1].

ومع هذا الرد الحاسم من السلطان عبد الحميد على اليهود، بقى «هرتزل» يراوغ ويتوسل بقيصر ألمانيا وروسيا.. إلا أن توسلاته ومحايلاته باءت جميعا بالفشل إزاء تصميم السلطان عبد الحميد ودهائه، وفهمه العميق لما يهدف إليه اليهود من مطامع.

وفى سنة ١٩٠٢م وافق السلطان عبد الحميد ـ بعد مفاوضات طويلة مع اليهود ـ على ما يأتى:

«أن تعطى الحكومة العثمانية وعدا لليهود يقضى لهم بالهجرة إلى بلاد الإمبراطورية المختلفة فى آسيا، على شرط أن يصبح اليهود المهاجرون من رعايا الدولة العثمانية، وأن يخضعوا للخدمة العسكرية، وأن يسكنوا فى بلاد الدولة العثمانية متفرقين غير مجتمعين ،

---

(١) الوطن اليهودي وعلاقته بالأرض المقدسة: ٨٩ موسي حبيب .

كل خمس أسر على الأكثر فى منطقة واحدة ، باستثناء فلسطين، فإنها محرمة عليهم»[1].

عزل السلطان عبد الحميد :

وذهل اليهود لهذه العروض التى قدمها لهم السلطان، ورفضوها جملة وتفصيلا، وأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه، واستعملوا من أجل ذلك مختلف الوسائل.. وتمكنوا فى النهاية من أن يدفعوا صنائعهم الملحدين فى الجيش التركى ليقوموا بثورة ضد السلطان عبد الحميد.. وقد انتهت هذه الثورة بعزله عن الحكم .. وكان من بين الثلاثة الذين تولوا تسليمه قرار العزل يهودى اسمه «قره صو» أفندى.

وبذلك انتقمت اليهودية العالمية لنفسها من السلطان عبد الحميد.

وثيقة تاريخية :

وظهر ذلك جليا فى رسالة وجهها السلطان بعد خلعة إلى الشيخ محمود أبو الشامات فى دمشق يذكر له فيها ما عرض عليه زعماء جمعية الاتحاد «جون تورك» مقابل السماح لليهود بتأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين.

وقد حصل على صورة هذه الوثيقة الأستاذ أحمد راتب عرموش، حيث يقول:

كنت حصلت على صورة هـذه الوثيقـة منذ فتـرة من الزمـن ، وقبل نشـر هـذا الكتاب ، [2]. وفى وقت كنت أقوم بالتحقق من صحتها، وكيفية وصولها إلى أبى الشامات، نشرت مجلة العربى فى عددها رقم ١٦٩ ديسمبر ١٩٧٢م مقالا قيما للأستاذ سعيد الأفغانى تحدث فيه عن هذه الوثيقة وقصتها . وقد جاء فيه:

كان الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية، وأول خليفة لصاحب الطريقة الشيخ على اليشرطى المشهور.. وكان راغب رضا بك ، مدير القصر السلطانى ، أيام السلطان عبد الحميد ، من مريدى الشيخ. وكلما زار الشيخ «إستانبول» نزل عند مريده مدير القصر. والظاهر أن السلطان الذى لا تخفى عليه خافية من شئون حاشيته، اطلع على الأمر، فسأل مدير قصره عمن يكون ضيفه، فأخبره أنه شيخه فى الطريق، ووصف له من حاله ما ملأ سمع السلطان وأهاجه لاستزارته، فلما اجتمع به ملأ عينيه وقلبه، وطلب منه الطريق فلباه ، وأصبح السلطان من تلاميذ الشيخ فى الشاذلية

(١) المصدر السابق : ٩٣.

(٢) حكومة العالم الخفية: مقدمة: هامش ٢١ وما بعدها.

وأورادها وأذكارها ، وقد عرفت أن الشيخ حسن الحاضرة ، تتقبله القلوب، فتعلق به السلطان، كما أخذ عنه الطريق جملة من وجهاء «إستانبول» وموظفى القصر السلطانى وجنوده وحراسه. فلما خلع السلطان ووضع فى قصر «سلانيك» كان من الحراس الذين أقيموا عليه، أحد تلاميذ الشيخ أبى الشامات، وعن طريقه كانت تتم المواصلة البسرية الكتابية بين الشيخ والسلطان المخلوع، وحفظ الزمان لنا هذه الرسالة التى أرسلها السلطان إلى الشيخ .

وقد احتفظ الشيخ بهذه الرسالة سرا طوال عهد الاتحاديين، ثم اطلع عليها بعض خلصائه، وبعد وفاته حافظ عليها أولاده أيضا، وهذه أول مرة تنشر فى كتاب [1]. .

وفيما يلى نص الرسالة:

---

(١) وردت الرسالة مع بعض الاختلاف في النص في كتاب « اليهود» إعداد زهدى الفاتح : ١١٤ انظر : المرجع السابق: ٢٦ هامش.

يا هو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة واتم التسليم على سيدنا محمد
رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه اجمعين والتابعين الى يوم الدين.
اشبو عريضه مي طريقت عليه شاذليه نك شيخي وجودلره روح وحيات
ويرن وجمله نك افنديسي بولنان الشيخ محمود افندي ابوالشامات حضرتلرينه
رفع ايديورم مبارك اللريني اوپرك ودعالريني رجا ايدرك سلام
وحرمتلرمي تقديمدن صكره عرض ايدرم كه . سنه حاليه شهر مايسك ٢٢ نجي
كونلي تاريخلي مكتوبي واصل اولدي . صحت وسلامتده دائم اولديغكزدن دولايي
الله حمد وشكرلر ايتدم . افندم اوراد شاذليه قراءتنه و وظيفه شاذليه يه
اللهك توفيقيله كيجه وكوندوز دوام ايديورم وبو وظيفه لرمي ادايه موفق
اولديغمدن دولايي الله تعالى حضرتلرينه حمد ايدرم ودعوات قلبيه كزه دائما
محتاج اولديغمي عرض ايلرم . بو مقدمه دن صكره شو مهم مسئله لي ذات
رشادتپناهيلرينه وذات سماحتپناهيلرينك امثالي عقول سليمه صاحبلرينه
تاريخي بر امانت اولارق عرض ايدرمكه . بن خلافت اسلاميه يي هيچ بر سبب ايله ترك
ايتمه دم . انجق وانجق «جون ترك» اسميله معروف ومشهور اولان
اتحاد جمعيتنك رؤساسنك تضييق وتهديدي ايله خلافت اسلاميه يي تركه
مجبور ايدلدم . بو اتحادجيلر اراضئ مقدسه ده فلسطينده يهوديلر
ايچون بر وطن قومي تأسيسني قبول وتصديق ايتمكلكم ايچون اصرارلرنده
دوام . بو اصرارلرينه وتهديدلرينه رغمًا بنده قطعيا بو تكليفي قبول ايتمدم
وبالآخره يوز اللي مليون التون انكليز ليراسي ويره جكلريني وعد ايتديلر

صورة الصفحة الأولى من الرسالة التى وجهها السلطان المخلوع

«عبد الحميد» إلى الشيخ أبى الشامات باللغة التركية وبخط السلطان نفسه.

بو تكليفي دخي قطعيا رد ايتدم وكنديلرينه شو سوزلرله مقابلده
بولندم . سز دكل ١٠٠ مليون التون انكليز ليراسى دنيا دولوسى
التون ويرسه كز بو تكليفلريكزى قطعيا قبول ايتمه م . بن اوتوز سنه دن
فضله بر مدتده ملت اسلاميه يه وامت محمديه يه خدمت ايتدم بوتون
مسلمانلرك وسلاطين وخلفاء عثمانيه دن آباء واجدادمك صحيفه لريني
قرارتمام . بناء عليه بو تكليفكزى مطلقا قبول ايتمام ديه قطعي جواب
ويردكدنصكره خلعمه اتفاق ايتدلر وبني سلانيكه كوندره جكلريني بيلديردلر
بو صورتله تكليفلريني قبول ايتدم . والله تعالى يه حمد ايتدمكه وايدرمكه دولت
عثمانيه يي وبوتون عالم اسلامي ابدي بر لكه اولاجغه اولان تكليفلريني يعني
ارازئ مقدسه ده فلسطينده يهودي دولتي قورلمسني قبول ايتمه دم . ايشته
بوندن صكره اولان اولدي وبوندن دولاييدر مولاي متعال حضرتلرينه حمد ايدرم
بو مهم مسئله ده شو معروضاتم كافيدر وشو سوزلرله مكتوبمه ختام ويريورم
مبارك اللريكزى اوپرك حرمتلرمى قبول بيورمكزى سزدن رجا واسترحام ايدرم
اخوان واصدقانك جمله سنه سلاملر ايدرم . اي بيم معظم استاذم . بو بابده سوزمي
اوزاتدم محافظه علم عالى سماحتينا هپيلرى وبوتون جماعتكزك معلومى
اولمق ايچون اوزاتمغه مجبور اولدم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

خادم المسلمين
عبد الحميد

في ٢٢ ايلول ٣٢٩

صورة الصفحة الثانية من رسالة السلطان إلى الشيخ أبى الشامات

وقد ظهر فى أسفلها توقيع السلطان عبد الحميد وتاريخ الرسالة.

يا هــو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد للّه رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتى هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة. إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندى أبى الشامات وأقبل يديه المباركتين راجيا دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامى، أعرض أننى تلقيت كتابكم المؤرخ فى ٢٢ مارس من السنة الحالية وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدى : إننى بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهارًا. وأعرض أننى ما زلت محتاجا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم، وإلى أمثالكم أصحاب السماحة ، والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة فى ذمة التاريخ:

إننى لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما ، سوى أننى ـ بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم ـ اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عَلَىَّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف.

وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا. وأجبتهم بالجواب القطعى الآتى:

(إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً ـ فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة

إنكليزية ذهبا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعى . لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلن أسوّد صحائف المسلمين آبائى وأجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل بتكليفكم بوجه قطعى أيضاً).

وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعى، وأبلغونى أنهم سيبعدوننى إلى سلانيك. فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمده أننى لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامى بهذا العار الأبدى الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية فى الأراضى المقدسة. فلسطين..

وقد كان بعد ذلك ما كان. ولذا فإننى أكرر الحمد والثناء على الله المتعال . وأعتقد أن ما عرضته كاف فى هذا الموضوع المهم ، وبه أختم رسالتى هذه.

ألثم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامى. سلامى إلى جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذى المعظم.

لقد أطلت عليكم البحث. ولكن دفعنى لهذه الإطالة أن نحيط سماحتكم علما ونحيط جماعتكم بذلك علما أيضا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فى ٢٢ أيلول ١٣٢٩

خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد

المؤتمر السادس :

وفى سنة ١٩٠٣ م عقد المؤتمر السادس لليهود، [١] وكان معظم النقاش فيه يدور حول إمكانية قبول إنشاء دولة لليهود فى غير فلسطين كسيناء.. أو قبرص .. أو أوغندا .. وقد استطاع يهود شرق أوربا بصفة عامة ويهود روسيا بصفة خاصة، أن يهدموا كل اقتراح يرمى إلى توطين اليهود أية منطقة فى العالم سوى فلسطين ، وأن يخرجوا بقرار مؤداه أن «فلسطين هى الوطن القومى الأبدى للشعب اليهودى».

وبدأ اليهود فى هذا العام يبحثون جديا عن دولة تساعدهم لبلوغ غاياتهم ، ولم يطل بحثهم، فقد وجدوا ضالتهم المنشودة فى بريطانيا، فولوا وجوههم شطرها، لتساعدهم على إنشاء دولة لهم بفلسطين.

ولقد كان «حاييم وايزمان» هو صاحب فكرة التقرب إلى بريطانيا، لأن شعبها من أكثر الشعوب إيمانا بأن الدولة اليهودية لابد أن تقوم فى فلسطين، حسب نص التوراة كما فهمه الإنجليز.. ولأن إنجلترا فى ذلك الوقت كانت مسيطرة على دول كثيرة فى العالم.. ولأن اليهودية العالمية كانت أقوى ما تكون نفوذا فى بريطانيا حينذاك..

وقد رحبت بريطانيا بهذا التقرب والتشبث ، ووجدت فى ذلك منفعة لها،وبذلك التقت مصالح الاستعمار مع مصالح الصهيونية العالمية.

المؤتمر السابع :

وفى أغسطس سنة ١٩٠٥م عقد المؤتمر السابع برئاسة «دافيد وولفنسون» ــ بعد وفاة «هيرتزل » ــ وكان من أبرز مقررات هذا المؤتمر توسيع الهجرة السرية إلى فلسطين ، وإنشاء مكتبة عبرية كبيرة بها..

ولم نعرف شيئا عن المؤتمر الثامن..

المؤتمر التاسع :

وفى سنة ١٩٠٧م عقد المؤتمر التاسع برئاسة «ماكس نورداو» من يهود «هنقاريا» وكان مقر انعقاده فى «هامبورج» بألمانيا، وقد تقرر فى هذا المؤتمر إنشاء مصرف للتسليف الزراعى، وإقامة مستعمرات تسير على النظم التعاونية، وبدئ فى هذه السنة بإنشاء

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٥٠ وما بعدها بتصرف.

مستعمرة « تل أبيت» وأخذت فى التوسيع بعد ذلك ، حتى أصبحت هى العاصمة لإسرائيل.

المؤتمر العاشـر :

وفى سنة ١٩١١م عقد المؤتمر الصهيونى العاشر برئاسة «نورداو» أيضا وكان من أهم مقرراته إنشاء شركة تحسين الأراضى ، وكان هدفها شراء الأراضى العربية وتقديمها للمهاجرين اليهود.

المؤتمر الحادى عشـر :

وفى سنة ١٩١٣م عقد المؤتمر الحادى عشر فى النمسا ، وفيه اتفق المؤتمرون على إنشاء الجامعة العبرية بالقدس.

مؤتمرات أخـرى :

ثم توالت المؤتمرات بعد ذلك ، وكانت تمثل تحولا ضخما فى تاريخ اليهود ، لأنها مكنتهم من التجمع لإحياء مطامعهم، بعد أن ظلوا مشتتين ممزقين أكثر من عشرين قرنا، وأصبح لهم ممثل رسمى يتحدث عنهم، ولأنهم عن طريقها رسموا الخطط المدروسة لاستلاب فلسطين، واستطاعوا أن يسخروا كثيراً من الدول لخدمة أغراضهم وآمالهم..

مستعمرات يهودية :

وحينما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م كان عدد المستعمرات التى يمتلكها اليهود حوالى أربعين مستعمرة زراعية، تبلغ مساحتها زهاء مائتى ألف فدان، ويعمل عليها ما يقرب من اثنى عشر ألفا من اليهود، وبلغ مجموع اليهود الذين كانوا يسكنون فلسطين فى ذلك الوقت أكثر من تسعين ألفا، كان نصفهم تقريبا يسكن مدينة القدس.

اليهود فى الجيش البريطانى :

ورأى اليهود أن نشوب الحرب العالمية فرصة ثمينة لهم لتحقيق مطامعهم، وأخذوا ينظرون إلى الكفة الراجحة، ليتقربوا منها ــ كما هو شأن اليهود ــ وأخيرا استقر رأيهم على مناصرة بريطانيا، لأنهم وجدوا أن علامات النصر تدنو منها، فالتحق عدد كبير من اليهود بالخدمة فى الجيش البريطانى، وكانوا يلبسون ملابس الجيش البريطانى، ويحملون

النجمة المسدسة كشعار لهم ، ونجح الدكتور « وايزمان » فى إنتاج مادة لصناعة المتفجرات... واستغلهم الإنجليز فى التجسس لحسابهم، ومن أشهر منظماتهم فى هذا المجال منظمة «نيلى» التى كان مُعظم أفرادها من يهود فلسطين .

وعد بلفور :

وفضلا عن هذا فقد استطاع اليهود أن يجروا أمريكا فى الدخول فى الحرب العالمية الأولى لمناصرة بريطانيا وحلفائها.. وقبض اليهود ثمن هذه الخدمات لبريطانيا «وعد بلفور» وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت وقد صدر فى الثانى من نوفمير ١٩١٧م [١] ويقضى بأن يعمل الإنجليز على إقامة وطن قومى فى فلسطين،ونصه:

«عزيزى مستر روتشيلد: تنظر حكومة جلالة الملك بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى، وسوف تبذل أفضل الجهود لتسهيل بلوغ هذه الغاية، على أن يفهم جيدا أنه لا يجوز عمل شىء قد يغير من الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية فى فلسطين، ولا الحقوق أو المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أى بلاد أخرى».

وفرح اليهود بهذا الوعد فرحا شديدا، واعتبروه نقطة تحول فى تاريخهم، وبلغت حماسة اليهود له مبلغا كبيرا، إذ أيقنوا أن إعلانه قد وضع حدا لآلامهم، وجاء محققا لتنبؤات كتابهم المقدس.

وقد ترتب على هذا الوعد أن ضاعف اليهود جهودهم لبلوغ مطامعهم فى فلسطين. وتقدموا إلى بريطانيا ببرنامج خاص طالبوا فيه بالاعتراف لليهود بجنسية خاصة بهم، وإعطائهم الاستقلال الذاتى..

اعتراف عصبة الأمم بالوعد :

ثم خطا اليهود خطوة أخرى، فعملوا على أن تعترف بهذا الوعد «عصبة الأمم» وقد تم لهم ما أرادوا.

ففى أبريل سنة ١٩٢٠م وقعت فى «سان ريمو» معاهدة الصلح مع تركيا، وفيها أدمج بيان «وعد بلفور» واعتبر جزءا من المعاهدة، وبذلك أعطى الوعد طابعا دوليا، إذ سجل رسميا لدى عصبة الأمم.

---

(١) انظر: خطر اليهودية: ٢٣٤.

اليهود أصحاب هذا الوعد :

وكانت عبارة الوعد من وضع اليهود أنفسهم، فقد جاء فى مذكرات «هربرت صموئيل» ما يلى:

« وفى شهر يناير سنة ١٩١٧م ذهبت بصحبة سيررونا لدستورز ولورد روتشيلد لمقابلة بلفور، وعرضنا عليه بوصفه وزيراً للخارجية أن الوقت قد حان لكى تصدر الحكومة البريطانية تصريحا نهائيا بالتأييد والتشجيع، وقد وعد بلفور أن يفعل هذا، وطلب إلىّ أن أقدم له تصريحا نرضى عنه ، وسيحاول هو أن يقدمه لوزارة الحرب، وبينما كنت متغيبا فى جبل طارق، أخذت اللجنة السياسية برياسة سوكولوف على عاتقها وضع مسودة المشروع ..» (١).

وقد اعترف وايزمان فى مذكراته بأنه هو الذى كتبه بالتعاون مع بعض اليهود، وأنه بعد كتابته سلمه لبلفور فى ١٩١٧/٧/١٨م (٢).

والخلاصة أن وعد بلفور كان وعدا ممن لايملك لمن لا يستحق، ثم استطاع الإثنان: من لا يملك ومن لا يستحق بالبطش والخديعة أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه وفيما يستحقه.

فلسطين تحت حكم بريطانيا :

وفى التاسع من ديسمبر سنة ١٩١٧م تم للإنجليز احتلال القدس.. وفى أوائل سنة ١٩١٨م تم لهم احتلال بقية أجزاء فلسطين، وأصبحت بذلك خاضعة للحكم العسكرى البريطانى الذى امتد زهاء ثلاث سنوات،تولى خلالها الحكم العسكرى على فلسطين عدد من الضباط المعروفين بميولهم اليهودية. وتمكن اليهود فى هذه الفترة من تنفيذ كثير من مشروعاتهم.

وفى سنة ١٩٢٠م أنهت الحكومة البريطانية الحكم العسكرى، واستبدلت به حكما مدنيا امتد هذا التاريخ إلى ١٤ مايو ١٩٤٨م وقد كان جميع الحكام الذين تولوا إدارة فلسطين فى تلك الفترة من الأشخاص الذين أصلهم يهودى، أو ممن يعرفون بتشجيعهم

---

(١) خطر اليهودية: ٢٣٩ نقلا عن: الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين: ١٠٧ الجامعة العربية ١٩٥٧.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٥٣ وما بعدها بتصرف.

لليهود: وبعضهم كان اليهود يختارونهم اختياراً للقيام بهذه المهمة .. وقد بلغ عدد المهاجرين اليهود الذين سمح لهم رسميا بسكنى فلسطين فى تلك الفترة أكثرْ من ٦٠٠ ألف مهاجر.

والخلاصة أن عهد الانتداب البريطانى على فلسطين كان يقوم على وضعها تحت ظروف إدارية واقتصادية وسياسية تضمن إنشاء الوطن القومى لليهود فيها. وأن الإنجليز فى فلسطين فى تلك الفترة ما كانوا إلا حراسا على مصالح اليهود، ومنفذين لمطالبهم.

وقد قال وايزمان فى مذكراته بغرور وصلف:

«نحن اليهود كنا نسعى لإقامة دولة لنا بفلسطين، وقد اخترنا الإنجليز لحكمها، واستعنا فى هذا بعصبة الأمم، فنحن الذين سلمنا فلسطين للإنجليز مؤقتا، وليس الإنجليز هم الذين وهبوها لنا بعد ذلك. ولقد احتضنت بريطانيا حركة الصهيونية منذ نشأتها، وأخذت على عاتقها تحقيق أهدافها، ووافقت على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب لليهود فى سنة ١٩٣٤م ولولا الثورات المتعاقبة التى قام بها عرب فلسطين لتم إنجاز هذا الاتفاق فى الوعد المذكور» (١).

وكان أول حاكم إنجليزى تولى الانتداب على فلسطين سنة ١٩٢٠م هو «هربرت صموئيل» الذى شرع ينفذ المخطط الصهيونى المجرم لاغتصاب فلسطين، تسنده الحراب البريطانية، وأموال يهود العالم ، وخاصة يهود الولايات المتحدة..

وقد اعترف وايزمان فى مذكراته أنه هو الذى اقترح على الحكومة البريطانية تعيين «هربرت صموئيل » مندوبا ساميا على فلسطين ، ليتولى نقل الوعد النظرى إلى حقيقة واقعة (٢).

وقد أنشأ الوكالة اليهودية التى هى عبارة عن حكومة يهودية ذات أجهزة تامة، وتضم أكثر من «٢٠٠» عضو من جميع أنحاء العالم، واعتبر اللغة العبرية لغة رسمية، وسهل تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين، حتى بلغ عددهم (١٥٦) ألف يهودى، وسلم اليهود جميع وسائل الصناعة والزراعة، وعين يهوديا مشرفا على أوقاف المسلمين، ومنح اليهود مساحات شاسعة من أراضى الدولة، وأعطى اليهود امتياز استغلال مياه نهر الأردن

---

(١) المرجع السابق: ٤٥٤ نقلا عن: مذكرات وايزمان: ٢٨.

(٢) انظر خطر اليهودية العالمية: ٢٤١ وما بعدها.

لاستخراج الكهرباء، وتولى القيام به اليهودى الروسى «بنحاس وتنبرغ» وكانت مدة امتيازه سبعين سنة. ثم أعطاهم امتاز مشروع آخر، يعتبر من أهم المشروعات، وهو مشروع استغلال مياه البحر الميت، لأن مياهه تحتوى على كميات ضخمة من الأملاح التى تستغل فى الصناعات المختلفة.

والخلاصة أن «هربرت» سخر نفوذه المادى والأدبى لتنفيذ مطامع الصهيونية.

ثم خلفه فى سنة ١٩٢٤م اللورد «بلومر» فسار على نهج سلفه «هربرت» فى تقديم كل المساعدات لليهود، وتضييق الخناق على العرب.

ومن الخدمات التى قدمها لليهود منحهم امتياز استخراج أملاح البحر الميت، وتسهيل شراء الأراضى لهم.

ثم جاء من بعده حكام آخرون لفلسطين من الإنجليز، ساروا جميعهم تبعا للخطة المرسومة التى وضعتها الحكومة اليهودية العالمية، والتى تكلفت الحكومة الإنجليزية بتنفيذها، وكان كل واحد من هؤلاء الحكام خادما أمينا وجنديا مطيعا لليهود.

وقد رأى عرب فلسطين أن بلادهم فى طريقها إلى أن تتحول إلى مستعمرة يهودية منذ وطئها أقدام الإنجليز سنة ١٩١٧م كما شاهدوا بأعينهم أن الإنجليز يعاملون اليهود كما يعامل الوالد الحنون طفله الوحيد المدلل.. فهم يفتحون لهم أبواب الهجرة.. ويعطونهم الأرض بغير حساب.. ويفسحون لهم المجال لاستغلال المياه.. ويعينونهم فى أرقى المناصب وأهمها..

وحتى اليهود فى استراليا كانوا يرسمون للمندوبين خطة تهويد فلسطين، ويسهمون فى تنفيذ تلك الخطة.. ولنقرأ ما قاله اليهودى «اتنجر» فى المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى سدنى باستراليا فى مايو ١٩٢٩م ونقلته جريدة Advent Herald فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٢٩م:

« اليهود فى فلسطين الفئة المعنية بالصناعة، والتى يهمها فرض الرسوم الجمركية، ومنذ بضع سنين والمنظمة الصهيونية تصر على حكومة الانتداب، وتطالب بفرض الرسوم لحماية الصناعة اليهودية. والعرب يرفضون هذه الحماية، لأنها ترفع الأسعار على المواد الاستهلاكية. ولكنا نجحنا وأصبحت جميع صناعاتنا محمية من المضاربة الخارجية.

وبالنسبة إلى الأراضى، يتساءل الكثيرون لماذا لم تعطنا حكومة الانتداب الأراضى الأميرية، وجوابى عن هذا التساؤل هو أننا قد حصلنا على أقسام كبيرة من الأراضى، بيد أننا لا نرغب فى الإعلان عن ذلك، وكلما حافظنا على السرية منعنا احتجاج جيراننا العرب.

إن الحكومة البريطانية متفاهمة مع المنظمة الصهيونية لمنحنا أجزاء كبيرة من الأراضى بأثمان رمزية. وأنا أعلن ذلك هنا فى استراليا. لأن العرب ليس لهم مندوبون يراسلون جرائدهم من استراليا. ولسوف نواصل طلب المزيد من المنافع والامتيازات» [1].

ولجأت الحكومة البريطانية فى جميع عهودها، ولجأ مندوبوها السامون فى فلسطين إلى خطة التضليل والغدر والمكر فى تفسير وعد بلفور وفى تنفيذه عمليا، وكان أقطاب الإنجليز الصهاينة «تشرشل» و «إيدان» و «بلفور» و «ماكدونالد» و«أتلى» و «بيفن» و« بيڤان» و« كروسمان» يتظاهرون دائما باتخاذ موقف الحياد بين العرب واليهود، ويفسرون وعد بلفور على أنه مجرد السماح للمهاجرين من اليهود فى الاستطيان بفلسطين التى تربطهم بها روابط روحية وتاريخية .. ! وفى الوقت نفسه يصدرون الأوامر إلى ممثليهم فى فلسطين بضرورة التعجيل بإنشاء الوطن القومى اليهودى، والسماح لليهود بالاستيلاء على أرض فلسطين ومياهها ومصادر الثروة فيها، ليقوم الكيان اليهودى على دعائم قوية راسخة. وكان من أول الدعائم التى يجب إعدادها ليقوم عليها الكيان اليهودى هى القوة البشرية. ومن أجل تأمينها أشرفت حكومة الانتداب على عملية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وسخرت فى سبيل ذلك أموال الحكومة ومعداتها ودوائرها وجيشها وبوليسها. كما وضعت خطة اقتصاد البلاد على أسس الهجرة اليهودية..

كفاح عرب فلسطين :

ومنذ الساعة التى دنست فيها أقدام الإنجليز أرض فلسطين .. [2] بدأ عرب فلسطين يشعرون بالخطر الجسيم يهدد كيانهم ومستقبلهم، بسبب الشروع فى تنفيذ الوعد الذى سمعوا عنه بعد وصول الإنجليز إلى فلسطين.

ورأى عرب فلسطين أن اليهود يتكاثرون ويمتلكون الأرض بأية وسيلة، ويحتلون

---

(١) خطر اليهودية العالمية: ٢٤٦ وما بعدها، نقلا عن:

Delivery In the Holyiand, A. Leese, London 1938.

(٢) المرجع السابق: ٢٦٥ وما بعدها بتصرف، وانظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٥٦ وما بعدها.

مراكز الحكومة بنسب عددية مخيفة.. كما أخذوا يسمعون عن قوانين للأرض تضيق الخناق على الفلاح، وقوانين للهجرة تسهل عملية الغزو الإجرامى الذى تنظمه اليهودية العالمية تحت حماية الحراب البريطانية والقوانين الاستعمارية.. وأصبح عرب فلسطين يرون كل يوم تطورا فى حياة اليهودى الجبان الذليل الضعيف.

وغدا ذلك الجبان الذليل بين عشية وضحاها نمروذا جبارا فقد كشفت الحراب البريطانية التى تحميه عن حقيقة الطبع الكامن فى ذلك اليهودى.. وأوضحت أن الطبع اليهودى أو الخلق اليهودى مبنى على الغدر والخسة والبطش والانتقام، والتدمير والنذالة، وحب اغتصاب مال غير اليهودى وعرضه ودمه ـ كما أسلفنا ـ ولقد تطور شعور العرب بالخطر المحدق بهم وبوطنهم إلى أعمال إيجابية، وثورات مسلحة، ومظاهرات سلبية حينا ودموية أحيانا أخرى.

ولقد بدأت تلك الأعمال الإيجابية منذ سنة ١٩٢٠م وأوجزها كما يلى:

١ ـ اضطرابات أبريل سنة ١٩٢٠م التى وقعت فى القدس، وقتل فيها عدد كبير من اليهود الذين تحرشوا بالعرب..وقد جرت محاكمة زعماء العرب نتيجة لهذه الحركة وحكم على سماحة مفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى بالسجن عشر سنين، وحكم بالسجن خمس عشرة سنة على الزعيم اليهودى الإرهابى «جابوتنسكى» إلا أن الأوامر صدرت فى لندن بعدم حبسه، مما أرغم المندوب السامى «هربرت صموئيل» حين وصل إلى فلسطين، لتسلم مهام منصبه على إلغاد الحكم الذى صدر على سماحة المفتى.

٢ ـ اضطرابات مايو ١٩٢١م فى يافا..وكان سببها مظاهرة قام بها اليهود للتحرش بالعرب، وقد دامت هذه الاضطرابات خمسة عشر يوما قتل فى أثنائها عدد كبير من اليهود والعرب، وعلى أثرها سافر إلى لندن وفد عربى برياسة السيد موسى كاظم باشا الحسينى، وعضوية السادة أمين التميمى، ومعين الماضى، وتوفيق حماد.. وعاد الوفد بعد أن أخفقت مساعيه فى إسماع صوت عرب فلسطين إلى الحكومة البريطانية الضالعة مع الصهيونية.

٣ ـ اضطرابات القدس فى ٢ نوفمبر ١٩٢١م وتلتها حوادث يافا فى مارس ١٩٢٤م.

٤ ـ اضطرابات أغسطس سنة ١٩٢٩م وقد بدأت فى ١٤ وانتهت فى ٣٠ منه..

وعمت جميع أنحاء فلسطين وقتل فيها حوالى ٢٠٠ يهودى ، أكثرهم فى الخليل والقدس ويافا.

وكان سبب هذه الحوادث اعتداء اليهود على البراق الشريف، ومحاولاتهم المتكررة لتغيير نظام الحالة الراهنة ـ ستاتسكو ـ بالنسبة إلى الحقوق المكتسبة التى نص عليها صك الانتداب «مادة ١٣» وقد أوفدت الحكومة البريطانية لجنة للتحقيق سميت باسم رئيسها «ولترشو» جاءت إلى فلسطين للتحقيق فى أسباب الاضطرابات، وهى خطة بريطانية معروفة، فقد كانوا كلما اضطربت الحالة فى البلاد سارعوا إلى إيفاد لجنة تحقيق، لتحذير الشعب الثائر الناقم، وقد بدأوا بإيفاد هذه اللجان منذ سنة ١٩٢١م «لجنة هايكرافث» ثم لجنة «شو» هذه فى سنة ١٩٢٩م ولجنة «سمبسون» فى سنة ١٩٣٠م ولجنة «ببل» ١٩٣٦م ـ ١٩٣٧م ولجنة «وودهود» ...إلخ .

كما كانت تصدر فى كل سنة تقريرا تسمية «النشرة السياسية» أو «الكتاب الأبيض السنوى» تضمنه الأعمال التى قامت بها فى فلسطين.

٥ ـ ثورة الشيخ عز الدين القسام، التى بدأت فى ٢ نوفمبر ١٩٣٥م وتحولت إلى حركة عصيان مسلح ضد حكومة الانتداب واليهود، وفى ٢٥ نوفمبر طوقت قوة كبيرة من الجيش البريطانى البطل القسام ومن معه فى غابة يعبد بقضاء جنين ، فاستشهد القسام ونفر من المجاهدين، وقبض على عدد من الأبطال حاكمهم الإنجليز وحكموا عليهم بالسجن مددا مختلفة.

٦ ـ الثورة الكبرى: طفح الكيل عند العرب، ولم يعد أحد منهم يصدق الإنجليز فى وعودهم الكثيرة التى كانوا يرددونها، كلما اضطرب حبل الأمن فى البلاد، والتهب الشعور العربى بالحقد والنقمة على سياسة تهويد البلاد.. لم يعد أحد يثق بأن الإنجليز سيشركون العرب فى حكم بلادهم، وأيقن الجميع أن وعود تأسيس مجلس تشريعى، وحفظ حق العرب فى وظائف الدولة، لا تعدو أن تكون حيلا إنجليزية ، تطبخها اليهودية العالمية ، والصهيونية والماسونية، من أجل تخدير العرب ، وتثبيط هممهم ، وإضعاف عزائمهم.. أدرك عرب فلسطين كل هذا ، فلجأوا إلى الحل الوحيد لعلاج مثل هذه الحيلة المرة التى وقعوا فيها.. وفى هذه المرة حملوا السلاح بعد أن تطورت مشاعرهم، وأحسوا أن الاستعمار البريطانى يبيعهم ويبيع وطنهم لمجرمى اليهود من مختلف أنحاء العالم.. حملوا السلاح من سنة ١٩٣٦م إلى نهاية سنة ١٩٣٩م وتلك كانت ثورتهم الكبرى التى

بذلوا فيها الدماء والمال والراحة والسعادة.

بدأت الثورة بتحرشات اليهود بسكان يافا العرب المجاورين لرأس الحيّة تل أبيب... ورد العرب على عدوان اليهود، فهرعت قوات الإنجليز لحماية اليهود، والبطش بالعرب كعادتها، كلما هرعت لميدان الاشتباك. فأضرب سكان مدينة يافا احتجاجا على تصرفات الإنجليز، وتحيزهم واعتدائهم على العرب العزّل من السلاح .

وامتد الإضراب الذى بدأ فى ١٧ أبريل ١٩٣٦م إلى جميع أنحاء فلسطين. وفى ٢٥ أبريل تألفت «اللجنة العليا» من عشرة أعضاء يمثلون الأحزاب الفلسطينية..(١).

وأذاعت اللجنة بيانا على الشعب دعت فيه استمرار الإضراب إلى أن تجاب مطالب الشعب فى وقف الهجرة اليهودية، وتشكيل حكومة دستورية تمثل الشعب الفلسطينى بأكثريته العربية الساحقة .

ومع الإضراب الذى شمل جميع مرافق الحياة التجارية والصناعية والحكومية ، حمل المجاهدون الفلسطينيون السلاح، واعتصموا بالجبال لمحاربة الجيش البريطانى الذى يحمى عملية تهويد البلاد.. وانتشر الفدائيون العرب فى المدن، ونصبوا الكمائن للإنجليز واليهود فى الطرقات.. ووصلت قوات متطوعة من خارج فلسطين.. وأخذت الثورة شكل حرب عصابات جند الإنجليز ضدها نخبة قواتهم فى فلسطين بقيادة الجنرال «ريتشى» أولا، ثم «ويفل»من بعده، فلما أخفق عيّن الإنجليز رئيس أركان حرب القوات البريطانية الجنرال «دل» قائد لقواتهم فى فلسطين. وكان تحت قيادته أكثر من «٧٢» ألف ضابط وجندى، بالإضافة إلى قوات البوليس البريطانى واليهودى، وقوات حدود شرق الأردن، وجيش الجنرال «جلوب» الذى كان يسمى بالجيش العربى.. ولقد انتصر الثوار الفلسطينيون على قوات بريطانيا العظمى فى أغلب المعارك التى خاضوها، وعجزت هذه القوات الضخمة بدباباتها وطائراتها ومدافعها عن إخماد ثورة شعب صغير أعزل .. واستعمل الإنجليز جميع أنواع البطش والإرهاب والوحشية وكانوا يعتدون على الشيوخ والنساء والأطفال وينسفون القرى على رؤوس السكان الآمنين، بحثا عن فدائى يظنون أنه لجأ إلى القرية.. ودام الإضراب العام ستة أشهر، والثورة مستعر أوارها لم تخمد، رغم التضحيات الجسيمة التى قدمها عرب فلسطين. وحينما يئس الإنجليز من إخماد الثورة حربيا لجأوا إلى الحيلة والدسائس والمكر، وأقنعوا ملوك العرب بالتوسط لإنهاء الإضراب ووقف العصيان،

(١) المرجع السابق : ٢٦٨ : ٢٦٩.

واعدين بالنظر فى مطالب العرب..!

وفى ١١ أكتوبر ١٩٣٦م أصدر ملوك العرب وأمراؤهم البيان التالى:

«إلى أبنائنا عرب فلسطين، لقد تألمنا للحالة السائدة فى فلسطين، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب وأمرائهم، ندعوكم للإخلاد للسكينة حقنا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقوا بأننا سنواصل السعى فى مساعدتكم» (١).

وضحك الإنجليز على عقول ملوك العرب الذين يحسنون الظن بالصديقة التقليدية بريطانيا.. ! مع أنها تسخر جميع قواها لخدمة اليهودية العالمية ! وانتهى الإضراب الذى دام ستة أشهر كاملة، وبرهن على قوة الشعب الفلسطينى وصلابته،واستعداده للتضحية والفداء .. وفقد عرب فلسطين فى تلك الفترة من الثورة أكثر من ثلاثة آلاف عربى وسبعة آلاف جريح، وثمانية آلاف شهيد من الشيوخ والنساء والأطفال، واعتقل الإنجليز حوالى ألفين من الشباب العربى.

وبعد ذلك شكل الإنجليز فى نوفمبر سنة ١٩٣٦م لجنة برئاسة المستر «بيل» الإنجليزى للنظر فى مسألة فلسطين .. واستمعت إلى أقوال اليهود والعرب.. ثم عادت إلى لندن ونشرت تقريرها فى يوليو ١٩٣٧م وكان يتضمن مشروعا لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود والإنجليز... !

القسم اليهودى، ويشتمل على أخصب أراضى فلسطين !

والقسم العربى وفيه الجبال الجرداء !

والقسم البريطانى ، وفيه القدس، وبيت لحم !

واقترحت اللجنة ضم القسم العربى إلى شرق الأردن ، فتتسع بذلك رقعة النفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط.

وبعد أن نشر التقرير عاد العرب إلى ثورتهم من جديد ، وانتهز الإنجليز مقتل حاكم الجليل «أندروز» فى ٢٦ سبتمبر ١٩٣٧م وحلوا اللجنة العليا، وعزلوا رئيسها سماحة

---

(١) المرجع السابق: ٢٧٠ نقلا عن : المؤامرة الكبرى : إميل الغوري ، النيل للطباعة ١٩٥٥م وانظر : بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ٢ : ٤٥٧.

المفتى من رئاسة المجلس الإسلامى الأعلى، وطاردوه...واعتقلوا الزعماء.. ودمروا القرى والمساكن .. ومع هذا فقد استمرت الثورة مشتعلة حتى سنة ١٩٣٩م.

وعقدت بريطانيا مؤتمرا فى لندن فى ٧ فبراير ١٩٣٩م حضره ممثلون عن الدول العربية، وعرب فلسطين، واليهود، إلا أن هذا المؤتمر فشل بعد شهر من انعقاده، وعادت الوفود إلى بلادها.

ورغم إخفاق المؤتمر فقد أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض فى ١٧ مايو ١٩٣٩م متضمنا بعض المقترحات أو المطالب العربية، التى تتلخص فى إلغاء وعد بلفور، ومنع الهجرة وبيع الأراضى، ومنح البلاد استقلالا تاما.. إلا أن الوفود العربية فى مؤتمر لندن تساهلت وتنازلت عن كثير من المطالب، ولخصت مقترحاتها بما يلى:

أ ـ تصبح فلسطين دولة مستقلة لغتها العربية ودينها الإسلام.

ب ـ تعقد الحكومة البريطانية مع حكومة فلسطين معاهدة دفاع مشترك.

حـ ـ يمثل اليهود فى الحكومة الدكتور وايزمان.

د ـ تمنع الهجرة بعد السماح لـ ٧٥ مهاجراً بدخول البلاد.

هـ ـ فترة الانتقال ١٠ سنوات.

ولم تأخذ الحكومة البريطانية بكل المقترحات العربية، وأصدرت الكتاب الأبيض ومن بنوده:

أ ـ تشكيل دولة فلسطين لا عربية ولا يهودية.

ب ـ إدخال ٧٥ مهاجراً خلال خمس سنوات.

جـ ـ تقسيم الأراضى إلى ثلاث مناطق:

الأولى : يصرح لليهود فيها بشراء الأرض.

والثانية : يصرح لهم فيها بشراء الأرض بعد موافقة الحكومة.

والثالثة: لا يسمح لهم بشراء الأرض فيها (١).

---

(١) المرجع السابق : ٢٧٣ ـ ٤٧٤ هامش.

ورفض اليهود هذا الكتاب، وأوعزوا إلى صديقهم «تشرشل» بمهاجمته، فهاجمه فى مجلس العموم البريطانى، وقد أهملت الحكومة البريطانية بسبب مهاجمة «تشرشل» ما تضمنه هذا الكتاب من مقترحات فى صالح العرب.

بداية الإرهاب اليهودى :

وما إن تكاثر اليهود فى فلسطين، بفعل سياسية التهويد التى اتبعتها حكومة الانتداب البريطانى ، حتى شرعوا يتدربون على استعمال السلاح، ويشكلون المنظمات السرية التى تتولى قتل العرب وإرهابهم، ليسلموا بتهويد وطنهم العزيز [1] .

وأشرف الضباط الإنجليز على تدريب اليهود وتسليحهم ، بحجة المحافظة على مستعمراتهم، وعاملوهم كما يعامل الأب طفله المدلل.. وفى كل مرة وقع فيها اشتباك بين العرب واليهود يسارع الإنجليز بدباباتهم ومدافعهم للفتك بالعرب وحماية اليهود... وحين آنس اليهود فى أنفسهم شيئا من القوة أخذوا يضربون الإنجليز أنفسهم، وتنكروا لحماية الذين وقفوا معهم ــ كما أسلفنا ــ وكانت اليهودية العالمية تنفخ فى ذلك اليهودى الجبان وتشجعه على التحول من موقف الضعف والذل إلى موقف الغدر والبطش والحقد.. وكان رئيس الحكومة البريطانية ووزراؤه عبيدا تسيرهم اليهودية والماسونية والصهيونية كيف تشاء.. وهاجم اليهود المعسكرات البريطانية التى تحمى اليهود ومستعمراتهم، وهاجموا القطارات الحربية وقتلوا الجنود، ونسفوا الجسور التى تربط بين فلسطين والدول العربية المجاورة وقتلوا أكبر شخصية بريطانية فى الشرق الأوسط «اللورد موين» فى نوفمبر ١٩٤٤م.

ونسفوا مكاتب الحكومة فى فندق الملك داود بالقدس، وقتلوا فى تلك الجريمة أكثر من ١٠٠ موظف بريطانى ممن كانوا عبيدا لليهود، يشرفون على نمو الوطن القومى اليهودى ، وكان ذلك فى ٢٢ يوليو ١٩٤٦م.

لقد مارس اليهود جميع أنواع القتل الفردى والجماعى ضد العرب والإنجليز ، ولم تحرك حكومة الانتداب ساكنا، لأنها كانت ضالعة مع اليهودية العالمية ومستخذية للنفوذ الصهيونى العاتى. كانت جميع عمليات القتل والتدمير تتم باتفاق مع الوكالة اليهودية

(١) أخطر العصابات اليهودية: منظمة «سترن» وعرفت باسم المحاربين من أجل حرية إسرائيل، ثم عصابة «الأرغون زفاي لومى »برياسة « ديغدرزئال » ومن بعده «يعقوب مريدور» ثم «مناحيم بيجن» ومنظمة «الهاجناه» التي كانت الحكومة تعترف بها رسميا، وأصبحت نواة الجيش اليهودي فيما بعد، المرجع السابق : ٢٧٥ وما بعدها بتصرف.

المسئولة عن كل ما يتعلق باليهود فى فلسطين. وكانت كثيرا ما تسارع إلى استنكار الجرائم الكبيرة المروعة مع أنها هى التى أمرت بها أو وافقت عليها كماحدث فى جريمة نسف فندق الملك داود [١] .

تقرير « بولـز » وأثره :

يقول الأستاذ عبد الله التل:

وفى غمرة الإرهاب اليهودى الصهيونى لدىّ حادثتان حاول فيهما إنجليزيان شجاعان أن يوجها نقدا إلى الخلق اليهودى المؤسس على الغرور والوقاحة والصفاقة والإجرام والوحشية والجشع.

والحادثة الأولى فى أيام الاحتلال العسكرى الأولى لفلسطين. وكانت اللجنة الصهيونية قد دخلت فلسطين فى ركاب الاحتلال وشرعت تعد العدة للسيطرة على الحكم ووضع الخطط لتهويد البلاد . فضح الجنرال السير «بولز» من صفاقتهم وجشعهم وغرورهم وكتب فى يوليو ١٩٢٠م تقريرا بذلك إلى قيادته العليا فى القاهرة، وكان جزاؤه على صراحته وشجاعته العزل من القيادة وإنهاء الحكم العسكرى وتسليمه إلى اليهودى «هربرت صموئيل» الذى عين مندوبا ساميا على فلسطين. أما تقرير بولز فيقول[٢]:

«وما أستطيع تقرير اللوم على فريق من الشعب أو على أفراد منه، وتلك قضيتهم معلقة غير مفصول فيها. ولكنى أستطيع أن أقول جازما إن اللجنة الصهيونية، لما جد الجد أبت الانقياد بالولاء لأوامر الحكومة، واتخذت من أول الأمر موقفاً عدائيًا خطيراً سفيهاً. وإنها لحقيقة مرة أن يظهر لنا أنه مستحيل أن نقنع صهيونيا بحسن النية والصدق من الجانب البريطانى.

وليس العدل ما يبتغيه الصهيونيون من الممثل العسكرى. بل هم يتطلبون فى كل أمر فيه ليهودى دخل أعمال التمييز والمحاباة فى جانب اليهودى وهم قوم يصعب التعامل معهم صعوبة لا تفوقها صعوبة. ولكونهم هم الأكثرية فى القدس ــ كذا ــ فما يقنعهم ولا

---

(١) The Revolt, Menachem Regin, W. II . Allen London 1951

وفيه يعترف السفاح مناحيم بيجن أن عملية نسف الفندق كانت باتفاق سابق مع الوكالة والهاجناه.

(٢) قضية فلسطين: نجيب صدقة، دار الكتب ، بيروت ١٩٤٦ ص ٧٨ .

يرضيهم ما لهم من حماية عسكرية، فإنهم يطلبون أن يتقلدوا أزمة الأمور بأيديهم. وفى سائر الأماكن حيث هم أقلية يضجون ضجيجا فى طلب الحماية العسكرية.

وقد لزمنى أن ألح فى تبيان ما أعانيه من الصعوبة فى ضبط أى موقف كهذا الموقف فى المستقبل إذا كنت مضطرا إلى التعاطى مع ممثل الطائفة اليهودية الذى يهددنى بإقامة هياج الغوغاء مقام القانون ويرفض الرضا بقوات القانون والنظام. ومما تقدم يتضح أن اللجنة الصهيونية تدعى لنفسها سلطتى وسلطة كل دائرة من دوائر الحكومة وتتعدى عليها. وإننى أقول بصورة الحزم إن دوام الحال على هذا المنوال ضرب من المحال، دون مجازفة بالسلام العام وإجحاف بحقوق إدارة أنا رئيسها.

وعبثا نقول للمسلمين وللنصارى إننا قائمون بماحرصنا به من المحافظة على الحال القديم ـ ستاتسكو ـ مما عهدناه وعهدوه يوم دخول القدس. فالحقائق تشهد بخلاف ذلك، فمن إدخال اللسان العبرى كلغة رسمية، إلى إقامة قضاء يهودى، إلى تلك التشكيلات الحكومية التى تتألف منها اللجنة الصهيونية ، والامتيازات المخصوصة الممنوحة لأعضاء اللجنة الصهيونية فى السفر والانتقال ـ كل ذلك قد حمل العناصر غير اليهودية على الاعتقاد الثابت والاقتناع الراسخ بأننا أهل محاباة. ومع ذلك كله، فاللجنة الصهيونية تتهم موظفى وتتهمنى أنا أيضا بمعاداة الصهيونية، فالحالة حالة لايطاق عليها صبر، ومن حق موظفى وحقى أن تواجه وتجابه بما ينبغى لها..

ولقد قامت هذه الحكومة بتنفيذ رغبات حكومة صاحب الجلالة، وإنما أفلحت فى ذلك كله بفضل الشرائع الضابطة لتصرفات المحتل العسكرى لأرض العدو، ولكن ذلك كله لم يكن ليرضى الصهيونيين الذين لا يفتئون يتوخون توريط هذه الإدارة العسكرية الوقتية بسياسة محابية حتى قبل أن يصدر الانتداب: وإنه ليستحيل إرضاء ذوى فكرة مخصوصة لا يطلبون رسميا إلا «وطنا قوميا» ولكنهم بالفعل لا يقنعون بما هو أقل من «حكومة يهودية» بكل مقتضياتها السياسية.

ولذلك فإنى أوصى فى سبيل السلام وسبيل الصهيونيين أنفسهم أن تلغى اللجنة الصهيونية فى فلسطين».

تقرير « باركر » وأثره :

والحادثة الثانية وقعت فى شهر يوليو ١٩٤٦ أى بعد ٢٦ سنة على تقرير الجنرال

«بولز» وبطل الحادثة الثانية هو الجنرال «باركر» قائد القوات البريطانية فى فلسطين. وكانت المناسبة هى نسف فندق الملك داود فى ٢٢ يوليو ١٩٤٦ ومقتل مائة موظف بريطانى كبير، مما دفع بالجنرال «باركر» إلى إصدار بيان خطير يتسم بالجرأة والصراحة أصدره فى ٢٩ يوليو ١٩٤٦ فكان نصيبه الطرد من وظيفته الكبرى. واستدعى إلى لندن ولم يسمع عنه أى خبر بعد عودته إلى بريطانيا، لأن الصهيونية طمسته وقضت على مستقبله. ونص البيان كما يلى [١]:

1-The jewsh Community of Palestine cannot be absolved from responsibility for the long series of outrages culminating with the blowing up of a large part of the governement offices in the king David Hotel causing grievious loss of life. Without the support, actual and passive, of the General jewish public, the terrorist gangs who actually carry out these Criminal acts would soon be unearthed and in tis measure the jews in this Country are accomplice and bear a share in the guilt.

2 - I am determined they shall suffer punishment and be made aware of the Contempt.and loathing with which we regard their conduct. We must not allow ourselves to be deceived by the hypocritical sympathy by their leaders and representative bodies nor by their protests that they are in no way responsible for these acts as they are unable to control the terrorists. I repeat that if the jewish Public realy wanted to stop these crimes they could do so by active Co-oporation with us.

3 - Consequently I have decided that with effect of receipt of this letter you will put out of bounds to all ranks all jewish places of entertainment, cofe's, restaurants, shops, and private dwelling. No British soldier is to have any intercourse with any jew and intecourse in the way of duty should be as brief as possible and kept strictly to the business in hand.

4 - I appreciate that these miasures will inflict some hardship on the troops but I am certain that if my are neasons fully explained to them they will understand their propriety and they will be punishing the jews in a

---

(١) حصلت على هذا البيان الجرىء من ملفات الحكومة حينما كنت حاكما للقدس سنة ١٩٤٨ وهو موجه إلى جميع أفراد القوات البريطانية في فلسطين.

way the race dislikes more than any by striking at their pockets and showing our comtempt for them.

E. H. Barker

It. Gen.

G. O.C. Palestine

ومعنى البيان :

١ ـ لا يمكن إعفاء الطائفة اليهودية فى فلسطين من مسئولية سلسلة أعمال الإرهاب التى وصلت أوجها بنسف جزء كبير من دوائر الحكومة فى فندق الملك داود مسببة خسائر محزنة فى الأرواح. ومن غير المساعدة الإيجابية الفعلية التى يقدمها جمهور اليهود للإرهابيين، فإن العصابات الإرهابية التى تقوم بالأعمال الإجرامية يمكن أن تستأصل حالا. ومن هنا يعد اليهود فى هذه البلاد مشتركين فى المسئولية ويتحملون نصيبا من الجريمة.

٢ ـ إننى عازم على أن ينالوا جزاءهم. وأن نشعرهم بازدرائنا واحتقارنا لتصرفاتهم. وعلينا ألا ننخدع بالشعور المزيف الذى يبديه قادتهم وممثلوهم ولا بالاحتجاجات التى يرددونها من أنهم غير مسئولين عن تلك الأعمال، لأنهم عاجزون عن السيطرة على الإرهابيين. وأكرر القول بأنه لو أراد الجمهور اليهودى حقا أن تقف تلك الأعمال الإجرامية لتعاون معنا إيجابيا فتقف تلك الأعمال.

٣ ـ وعليه فقد قررت اعتبارا من وصول هذا الكتاب إليكم ، أن يمنع كل الأفراد من ضباط وجنود من دخول أماكن التسلية اليهودية ، وكذلك المقاهى والمطاعم والمخازن التجارية وأماكن السكن الخاصة. على كل جندى بريطانى ألا يتعامل مع أى يهودى أو يختلط به. والتعامل أثناء الوظيفة يتم فى أضيق حدود الواجب الرسمى.

٤ ـ إننى أقدر قسوة هذه الإجراءات على قواتنا، ولكنى أعتقد أنه إذا تم شرح الدوافع والأسباب لجنودنا فإنهم سيدركون وجاهة هذه الإجراءات، ويعاقبون اليهود بالطريقة التى يكرهها جنسهم ـ بالضرب على جيوبهم وإظهار احتقارنا لهم .

وبعد هذا البيان هزم الجنرال الشجاع، وانتصر الإرهاب اليهودى فى فلسطين الذى يمثل جزءا صغيرا من شبكة الإرهاب اليهودى فى العالم. والإرهاب اليهودى الذى أسهم فى خلق دولة الإجرام فى فلسطين ما زال سيفا مسلطا على رءوس القادة والحكام

والزعماء والكتاب والمفكرين فى جميع أنحاء العالم الغربى. واليهودية العالمية ترهب وتهدد كل إنسان حر فى أوربا وأمريكا، إما بفقد حياته أو ماله أو منصبه أو شرفه. ولن تجد الأمة العربية من بين رجالات الغرب عددا كبيرا يجازف بحياته أو ماله أو منصبه أو شرفه فى سبيل الحق ودفعا للظلم الذى وقع علينا فى فلسطين. وخدعة النازية ورجال النازية الذين تطاردهم اليهودية العالمية وترهب العالم تحريا عنهم، لم تزل حوادثها عالقة فى ذهن كل إنسان. وهى فى كل يوم تشرع فى الدول الغربية العمياء الذليلة سيف الاتهام، باحثة عن ضحية جديدة لإرهابها، مهددة باختطاف أشخاص أبرياء تشردوا فى آفاق الأرض جزاء احتقارهم لليهودية العالمية وكرههم الأساليب اليهودية الغادرة الماكرة حتى لم يبق مكان فى العالم يطمئن فيه الألمانى غير البلاد العربية التى تتحدى اليهودية العالمية ولا تخضع تحت أقدامها كما تفعل دول الغرب فى أوربا وأمريكا. ولم تنس بعد حادث اختطاف «إيخمان» الذى نقلته العصابات اليهودية من الأرجنتين إلى دول العصابات فى فلسطين وأعدمته هناك لتجعل من قصته سيف إرهاب تشرعه فى وجه كل من تسول له نفسه من رجالات الغرب الخروج عن الخط الذى ترسمه اليهودية العالمية المجرمة.

مأساة التقسيم :

وحين اندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ استغلها اليهود لبلوغ مطامعهم، وتنظيم صفوفهم، وإعداد العدة اللازمة لتحقيق مشروعاتهم فى فلسطين، واعتمدت الدعاية اليهودية الصهيونية الماسونية فى خطتها على اضطهاد اليهود فى ألمانيا النازية، وفى دول أوربا التى سيطر عليها النازى، وارتضت ضمائر حكام الغرب وزعمائه وقادة الفكر فيه أن يكون حل مشكلة اليهود على حساب الأمة العربية، وكان واضحا أن العرب لا ذنب لهم فيما وقع على اليهود من اضطهاد وذبح وتشريد، وأن الذنب بالدرجة الأولى ـ كما أسلفنا ـ يقع على اليهود أنفسهم، وما طبعوا عليه من غدر ومكر وإجرام وخيانة، وبالدرجة الثانية على المدنية الأوربية التى يبدو أنها لم تطق صبرا على الخلق اليهودى المقيت، فواصلت التعبير عن كراهيتها لليهود ومقتها لأخلاقهم بحركات للقتل الجماعى على مر التاريخ.

وفى سنوات الحرب حصل اليهود فى فلسطين على السلاح، تسلموه من الإنجليز بوساطة الرشوة والغوانى والسرقة، واستيراده من الخارج بموافقة السلطات البريطانية الحاكمة.. وزاد الطين بلة تشكيل فيلق يهودى يخدم مع قوات الحلفاء تحت إشراف القيادة البريطانية.. وحينما انتهت الحرب سرح الفيلق، واحتفظ كل فرد من أفراده بسلاحه هدية

من الجيش البريطانى الصديق رفيق السلاح .. !

وحدثت الأعمال الإرهابية اليهودية ـ كما ذكرنا ـ واتخذتها الحكومة البريطانية ذريعة لإظهار عجزها عن حل المشكلة التى خلقتها بنفسها، ووضعت أسسها ونفذتها، حتى غدت جريمة بشعة لم يعرف التاريخ مثلها.. ومع سياسة إظهار العجز عن حل المشكلة عمدت الحكومة البريطانية إلى إشراك الولايات المتحدة فى مشكلة فلسطين، مع أنها تعلم أن الولايات المتحدة غارقة فى بحر اليهودية والصهيونية إلى الأذقان.

وتطورت مراحل المشكلة زمن الحرب وبعدها، مما أدى إلى وقوع مأساة التقسيم، وأهم هذه التطورات ما يلى:

١ ـ فى سنة ١٩٣٩م قررت الهيئة البرلمانية لحرب العمال البريطانى مطالبة الحكومة البريطانية بإلغاء الكتاب الأبيض الذى صدر فى مايو ١٩٣٩ م يحدد الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

٢ ـ وفى سنة ١٩٤٠م قرر مؤتمر حزب العمال البريطانى مطالبة الحكومة بفتح أبواب فلسطين لليهود.

٣ ـ وفى سنة ١٩٤٢م قدم اثنان وستون عضوا من مجلس الشيوخ الأمريكى ، ومائة وثمانون عضوا من مجلس النواب، مذكرة يطالبون فيها الولايات المتحدة بمساعدة اليهود على إنشاء دولة لهم فى فلسطين.

٤ ـ وفى سنة ١٩٤٣م قرر حزب العمال البريطانى مطالبة الحكومة بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، لتصبح لهم الأكثرية اللازمة لتأسيس دولة يهودية.

٥ ـ وفى سنة ١٩٤٤م أصدر الرئيس «روزفلت» بيانا رسميا طالب فيه بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بلا حدود، وأبدى فيه عطفه وعطف الشعب الأمريكى على اليهود المنكوبين .. ! (١).

٦ ـ وفى مايو سنة ١٩٤٥م انتهت الحرب العالمية الثانية مع ألمانيا فى ٧ مايو ومع اليابان فى ٢ سبتمبر من السنة نفسها، وغدت أمريكا أكثر تحمسا من بريطانيا لإقامة دولة لليهود فى فلسطين، إذ أصدر «ترومان» رئيس الولايات المتحدة بيانا يطالب فيه الحكومة البريطانية بأن تسمح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين فورا.

(١) انظر الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين : الجامعة العربية ١٩٥٧م.

ثم قدم بعد ذلك خمسة آلاف قسيس بروتستانتى أمريكى عريضة رفعوها إلى الحكومة والكونجرس يطلبون فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية حرة. وكشفوا بذلك عن أهمية العامل الدينى فى القضية.

٧ ـ وفى ديسمبر سنة ١٩٤٦م أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى حكومة أمريكا تطالبها فيها بالتخفيف من حماستها لليهود، وتبين لها حقيقة القضية الفلسطينية، فما كان من الحكومة الأمريكية إلا أن أرسلت ردا على الجامعة العربية جاء فيه: (١).

«إن الحكومة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى عاضدت فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين، حكومة وشعبا ، فتصرفها اليوم جاء مطابقا لسياستها التقليدية عندما تدعو إلى اتخاذ التدابير الرامية إلى إبراز هذه الفكرة إلى حيز الوجود، وأما بشأن تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين من مناطق الاحتلال الأمريكى فى أوربا فإن الكثيرين من هؤلاء اليهود المضطهدين يتطلعون إلى فلسطين كملجأ لهم».

وكانت هذ المذكرة أوضح بيان وأبلغ دليل على تدعيم أمريكا للصهيونية ومشاركتها لبريطانيا فى التآمر على تهويد فلسطين.

وفى خلال هذه السنوات قامت الشعوب العربية بمظاهرات ضد سياسة بريطانيا وأمريكا بالنسبة لفلسطين، كما قام المجاهدون الفلسطينيون بثورات متعددة ضد الإنجليز واليهود، واستطاعوا عن طريق هذه الثورات أن يزعجوا أمن بريطانيا وأن يكبدوها خسائر فادحة فى الأموال والأرواح.

٨ ـ وفى فبراير ١٩٤٧م تظاهرت بريطانيا بالعجز التام عن إيجاد حل لمشكلة فلسطين، وقررت إحالتها إلى الأمم المتحدة.

وانتهزت اليهودية العالمية فرصة تحويل قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة، فاستعملت كل إمكانياتها فى التأثير على أعضاء الأمم المتحدة ليصوتوا بما يرضيهم، ووقعت خلال نظر القضية فى تلك الفترة مؤامرات ودسائس عجيبة (٢) تولى كبرها «ترومان» رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت .

٩ ـ وبعد مداولات ومشاورات عرض قرار التقسيم لفلسطين بين العرب واليهود

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٦٠ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر : خطر اليهودية : ٢٩٢ وما بعدها.

على الأمم المتحدة فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧م فوافق عليه ثلاثة وثلاثون عضوا، وعارضه خمسة عشر عضوا معظمهم من البلاد العربية والإسلامية.. وكان على رأس الدول التى وافقت على التقسيم أمريكا وروسيا.

وبهذا القرار الدولى تحقق لبريطانيا ما كانت تريده لليهود، وانتصر باطل اليهودية العالمية على حق العرب والمسلمين، ونال اليهود وعدا رسميا من دول عديدة بتأسيس دولة لهم فى قلب العالم الإسلامى ، وأعلن الإنجليز عقب ذلك أنه سيتخلون عن الانتداب على فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م ما عدا مدينة «حيفا» فإنهم سيخرجون منها فى أول أغسطس من نفس العام.

قيام الدولة المجرمة :

وقد رفضت الدول العربية قرار التقسيم، واندلعت المظاهرات فى كل دولة عربية وإسلامية وبدأت الجامعة العربية فى إعداد جيش لإنقاذ فلسطين من المتطوعين، وتألفت فى فلسطين قوات الجهاد المقدس بقيادة الشهيد «عبد القادر الحسينى» وقامت هذه القوات بنسف مبنى الوكالة اليهودية، واستطاعت أن تسيطر على الطرق والمواصلات فى فلسطين، وأن تعزل منطقة القدس التى كان يسكنها مائة وعشرون ألفا من اليهود..

وأصبح واضحا أن كفة اليهود هى الخاسرة، (١) مما حمل مندوب أمريكا فى الأمم المتحدة أن يطلب فى مارس ١٩٤٨م العدول عن قرار التقسيم، ووضع فلسطين تحت وصاية دولية.

وحين وجد الإنجليز أن الحكومة الأمريكية جاده فى تغيير رأيها عن التقسيم بعد الذى شهدته من انتصارات عرب فلسطين، سارعوا إلى القيام بأعمال إجرامية غادرة، رفعت من معنويات اليهود، وأدت إلى ترجيح كفتهم.

ومن أخطر الأعمال الإجرامية الغادرة التى اقترفها الإنجليز ما يلى:

١ ـ تسليم مدينة حيفا لليهود فى ٢١ أبريل ١٩٤٨م مع أنهم كانوا قد اتخذوا قرار بإخلائهم لها فى أول أغسطس من العام نفسه ومنعوا العرب من عمل التحصينات اللازمة، وإحضار النجدات العسكرية، منعوا كل ذلك. بحجة أنها مدينة واقعة فى مسئولية الجيش البريطانى إلى يوم الجلاء عنها فى أول أغسطس، وفى الوقت نفسه تآمروا مع اليهود،

---

(١) خطر اليهودية : ٣٠٠ وما بعدها بتصرف .

وباعوا لهم المدينة... وغدروا بالعرب، وتركوا العصابات الصهيونية تهاجم الأحياء العربية التى كان الإنجليز يتظاهرون بحمايتها، وبعد أن انهارت الخطوط العربية توسطوا لتنظيم عملية التسليم والجلاء، وأشرفوا على هجرة أكثر من مائة ألف عربى من مدينة حيفا وضواحيها.

وكان قائد القوات البريطانية التى سلمت حيفا لليهود الجنرال «ستكويل» الذى قاد القوات البرية الإنجليزية التى اشتركت فى العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦م .

وكان هذا التسليم قبل نهاية الانتداب المقررة فى ١٥ مايو ١٩٤٨م.

٢ ــ تسليم مدينة يافا وضواحيها لليهود فى ٢٤ أبريل ١٩٤٨م مع أن موعد إخلائها كان محدد له ١٥ مايو من نفس العام بحسب قرار الحكومة البريطانية وممثليها فى فلسطين.. ولكن العرب فوجئوا بالإنجليز يخلون مواقعهم الحربية المسيطرة على العرب ويسلمونها لليهود.. ودارت معركة غير متكافئة، بسبب غدر الإنجليز وخيانتهم وتآمرهم مع اليهود، وانهالت المدفعية التى أخذها اليهود من عبيدهم الإنجليز على المنطقة العربية إرهابا وتدميرا، ولم تدم المعركة سوى أيام نزح بعدها عرب يافا والقرى المجاورة، وتحقق للإنجليز ما كانوا يهدفون إليه من تسليم المدن العربية إلى اليهود خالية من سكانها. وتلك كانت سياسة حكومتهم وأحزابهم وزعمائهم فى بريطانيا.

٣ ــ ولم يكتف الإنجليز بتسليم حيفا ويافا.. بل سلموا مدينة صفد ومدينة طبرية، وذلك قبل نهاية الانتداب المقررة فى ١٥ مايو ١٩٤٨م وأدت خياناتهم تلك إلى زعزعة الجبهة العربية، وتشجيع العصابات اليهودية المجرمة التى تسلمت من الإنجليز معسكرات كاملة بما فيها مستودعات الأسلحة والذخائر.. وأخذ اليهود المجرمون يفتكون بالعرب العزل من السلاح، بعد أن عجزوا عن مواجهة الجنود الأبطال من جيش الجهاد المقدس فى معارك شريفة مكشوفة.. واقترف اليهود بتشجيع من القوات البريطانية جرائم بشعة، لا يقترفها إلا من كان له خلق اليهود وغدرهم، وكان من أشد تلك الجرائم بشاعة ووحشية مذابح دير ياسين، القرية العربية التى كانت مطمئنة إلى حماية قوات الانتداب المسئولة عن البلاد حتى ١٥ مايو، فقد انتهز اليهود فرصة استشهاد البطل عبد القادر الحسينى فى معركة القسطل بتاريخ ٧ أبريل ١٩٤٧م حيث عاد من دمشق يائسا من الجامعة العربية ووعودها واستعداداتها التى لا تتناسب وخطورة المعركة، ومن ثم قاد معركة القسطل واسترد الموقع الخطير، إلا أنه سقط شهيدا، وأكرمه الله سبحانه وتعالى فلم يشهد مصرع

الوطن.. وهاجم اليهود القرية الآمنة، وفتكوا بسكانها من النساء والأطفال والشيوخ، وجمع اليهود جثث القتلى وشوهوها، ثم ألقوا بها فى بئر القرية فى ٩ أبريل ١٩٤٨م.

وكذلك فعل اليهود بقرية ناصر الدين قرب طبرية.. فتكوا بالنساء والأطفال، ليبعثوا الرعب فى قلوب عرب فلسطين، فيهجروا ديارهم ويتسلمها اليهود بلا عناء أو مقاومة. واعترف المجرم اليهودى مناحم بيجن زعيم عصابة الأرغون التى اقترفت تلك الجرائم، بأنه نفذ هذه الجرائم باطلاع الوكالة اليهودية وقوات الهاجناه الرسمية.

وبعد أن نفذ الإنجليز سياسة ترجيح كفة العصابات اليهودية بتسليمهم المدن العربية الكبرى، غيرت حكومة الولايات المتحدة موقفها، وعادت تؤيد قيام الدولة المجرمة، وحين أهلت الدقائق الأولى بعد منتصف ليلة ١٥ مايو ١٩٤٨م كان العميل اليهود ترومان يبرق إلى الدكتور وايزمان مهنئا ومعترفا بالدولة اليهودية التى سموها «إسرائيل» .

مراحل الحرب :

وبعد أن كثرت جرائم الإنجليز واليهود ضد عرب فلسطين، وبعد أن أصبح واضحا أن تلك العصابات لا تفرق بين المحاربين وغير المحاربين، ولا تتقيد بأى شرف أو قانون حرب، قررت الجامعة العربية أن تدخل الجيوش العربية فلسطين، لإنقاذ الشعب العربى من همجية تلك العصابات وهذا الإرهاب وذلك الغدر .. وكان هنالك رأى يقول بعدم دخول الجيوش رسميا، بل تكتفى الدول العربية بمديد العون إلى عرب فلسطين، بالسلاح والمال والمتطوعين..! وكانت نتائج المعركة سيئة إلى الحد الذى لم تكن لتسوء أكثر منه، لو بقيت الجيوش العربية على الحدود، واكتفت بالمساعدة العسكرية الرسمية ..!

المرحلة الأولى :

ابتدأت من يوم دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو١٩٤٨م وانتهت فى أول يوم من الهدنة الأولى ١١ يونيو وكانت الكفة العربية فيها هى الراجحة.

فقد انتصرنا فى معركة القدس القديمة، واقتربت الجيوش العربية من العاصمة تل أبيب.

المرحلة الثانية :

بدأت من يوم انتهاء الهدنة الأولى فى ٩ يوليو ١٩٤٨م وانتهت عند قبول الهدنة الثانية

في ١٨ منه، وفى هذه المرحلة رجحت كفة اليهود، بسبب مأساة تسليم اللد والرملة، وعدم توحيد العمل الحربى ضد اليهود.

المرحلة الثالثة :

بدأت من يوم أن خرق اليهود الهدنة فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٨م واعتدوا على القوات المصرية فى جنوب فلسطين، ودامت تلك المعركة متقطعة حتى ٧ يناير ١٩٤٩م يوم قبلت مصر الاشتراك فى مباحثات هدنة جديدة مع اليهود فى رودس، ثم تبعتها الدول العربية وفاوضت اليهود فى رودس وعقدت معاهدات الهدنة معهم.

المرحلة الرابعة :

وقد تمت فى شهر مارس ١٩٤٩م وفيها سلم الجنرال جلوب لليهود الجزء الجنوبى من النقب، ويقع رأسه الجنوبى على خليج العقبة، حيث ميناء أم الرشراش تسلمه اليهود من جلوب، وفصلوا الوطن العربى فى أسيا عن الوطن العربى فى أفريقيا لأول مرة فى التاريخ.

أسباب الهزيمة :

وأسباب الهزيمة كثيرة.. منها ما هو داخلى .. ومنها ما هو خارجى..

أهم الأسباب الداخلية :

وأهم الأسباب الداخلية ما يلى :

١ ـ ضعف الوازع الدينى فى نفوس الكثيرين من المسلمين، [1] أدى بهم إلى فساد الأخلاق، وانحلال العزيمة، وفتور الشهامة والغيرة، والتفريط فى أداء فرائض الله وارتكاب ما نهى الله عنه، وعدم التفكير إلا فى متع الحياة الدنيا وزينتها، وعدم المبالاة بما ينزل بالأمة من نكبات، وقد رأينا الكثيرين ممن ينتسبون إلى الإسلام لا يعيرون كارثة فلسطين أى اهتمام.

٢ ـ الغفلة الشديدة عن تعرف مواطن الخطر المحيط بالأمة الإسلامية من جراء تسرب الصهيونية العالمية لغزو الأرض المقدسة، وعدم معالجة هذا الخطر منذ البداية بالجد والحزم، والجهل بما تبيته الصهيونية العالمية للأمة الإسلامية من أحقاد دفينة، وشرور كبيرة، وبلغ من استخفاف بعض العرب بالخطر الصهيونى ومن وهنهم وخورهم خلال مقابلاتهم الرسمية

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢: ٤٦٤ وما بعدها بتصرف.

للمسئولين الإنجليز والأمريكيين بشأن قضية فلسطين، أنهم كانوا يقفون منها موقف الوسطاء المترددين الخائرين، على حين كان زعماء اليهود فى مثل هذه المقابلات يظهرون أقصى التطرف والشدة، ومنتهى الجد والعزيمة والصلابة.

وقد اغتر بعض المسئولين من العرب بخداع الإنجليز الذين أوهموهم أن اليهود لن ينالوا من فلسطين سوى منطقة صغيرة، واستطاعوا بوسائلهم المتنوعة أن يملكوا عليهم أمرهم، وأن يجعلوهم يعالجون قضية فلسطين بالكلام الأجوف.. وأن يحملوهم على إبعاد العناصر المؤمنة المخلصة عن الاشتراك فى الدفاع عن فلسطين، بحجة أنهم مغالون، وبعيدون عن الحكمة والكياسة.

٣ ـ الجهود المادية والأدبية التى بذلها العالم الإسلامى فى سبيل بقاء فلسطين عربية إسلامية، أقل بكثير من الجهود التى بذلتها اليهودية العالمية لتهويد فلسطين واستلابها من أيدى أصحابها الشرعيين.. وعلى سبيل المثال لو نظرنا إلى ما جمعه اليهود من أموال فى سبيل السيطرة على فلسطين لوجدناه أضعاف أضعاف ما جمع من العالم الإسلامى من أجل الدفاع عن الأرض المقدسة..

ولقد لفت هذا الشح الشديد أنظار بعض الأجانب، فقد سأل المستر «كروسمان» عضو مجلس العموم البريطانى، أحد أصدقائه العرب المسلمين قائلا:

هل فى الدين الإسلامى ما يمنع التعاون بين المسلمين؟

فأجابه صديقه بالنفى، وسأله عن السبب فى هذا السؤال، فقال كروسمان :

إذًا لما لا يساعد بعضكم بعضا، ولا تبذلون شيئا، حتى للاجئين المشردين..؟ (١).

٤ ـ من أكبر العوامل التى أدت إلى خسارة العرب فى حرب فلسطين تفرق قيادتهم، وعدم خضوعها لرأى يدير المعركة بحزم وإخلاص وكفاءة، فقد خاضت الجيوش العربية المعركة بقيادات متفرقة، وسياسات متخاذلة مترددة، ولم يقاتلوا صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص، وبذلك ضاعت الفرصة من أيديهم فى الانتصار على عدوهم.

ومما لا شك فيه أن الجيوش العربية عندما دخلت معركة فلسطين سنة ١٩٤٨م ـ وفيما بعد هذا التاريخ من معارك ـ كانت أقوى عدة، وأكثر عددا من اليهود، ولكن هذه القوة والكثرة لم تجد من يقودها لإنقاذ فلسطين بأمانة وحماسة وإخلاص.. بل بالعكس وجدت

---

(١) المرجع السابق: ٤٦٥ نقلا عن: حقائق عن قضية فلسطين: ١٧٣ الهيئة العربية العليا لإنقاذ فلسطين سنة ١٩٥٤م.

من يتآمر عليها، ويمزق صفوفها، ويمكن عدوها منها، ولئن قيل بأن الجيوش العربية كانت موحدة، فإن هذا القول مردود بأن هذا التوحيد كان شكليا، وأن ضرره كان أكبر من نفعه.

ولقد صرح «ابن جوريون» رئيس وزراء إسرائيل بأن انتصارهم فى معركة فلسطين مرده إلى حسن سياستهم، وليس إلى قوتهم الحربية، فقد قال فى خطاب له فى الكنيست اليهودى :

«نحن مدينون بنجاحنا فى إقامة دولة إسرائيل بـ ٩٧٪ للسياسة، وبـ ٣٪ للحرب والجيش فقط (١).

٥ ـ وأيضا من أكبر العوامل التى أدت إلى خسارة الحرب توقيع الهدنتين: الأولى والثانية بين العرب واليهود، نتيجة ضغط إنجلترا وأمريكا على بعض الدول العربية، فقد كان العرب فى أول الأمر يقفون موقف المنتصر الظافر،لأن الجيش المصرى كان موغلا فى التقدم نحو «تل أبيب» والجيش العراقى كان على بعد أميال منها،والجيش الأردنى كانت «اللد والرملة» تحت يده.. وكان اليهود فى «القدس» فى أسوأ حال بعد أن ضيق المجاهدون عليهم الخناق.. حتى لقد رفعوا الرايات البيضاء رمزا لاستسلامهم.. أما يهود «حيفا» فقد وسطوا بعض العرب لمفاوضة الجيش العراقى على التسليم.. وفى «تل أبيب» كان اليهود فى ذعر وفزع، حتى لقد طالبوا زعماءهم بالتسليم العاجل، فاضطر «ابن جوريون» رئيس وزراء إسرائيل حينئذ أن يخطب فيهم قائلا:

«إن لدىّ وعدا قاطعا من إنجلترا وأمريكا بأن الهدنة ستعقد خلال ثلاثة أيام، فإذا لم يتم ذلك فتعالوا فاشنقونى هنا» (٢).

وفعلا قبل أن تمضى ثلاثة أيام على خطاب «ابن جوريون» تمت الهدنة الأولى التى حصلت فى ١١ يونيو سنة ١٩٤٨م وخلال الهدنة الثانية التى أبرمت فى ١٩ يوليو من نفس العام أتيح لهم خلال هذه الفترة أن يتداركوا ما كان ينقصهم من السلاح والعتاد، وأن يفكوا الحصار عن يهود «القدس» وأن يتمكنوا ـ عن طريق عملائهم ـ من إجبار الفوج العراقى على الانسحاب، بعيدا عن مواقعه، وأن يجعلوا يهود «حيفا» يعدلون عن التسليم، وأن يسحبوا القوات الأردنية من «اللد والرملة» .

---

(١) حقائق عن قضية فلسطين: ١٩٠

(٢) المرجع السابق : ١٨٠.

والخلاصة أنهم استطاعوا خلال فترتى الهدنة أن يقلبوا الوضع رأسا على عقب ! ولو أن زعماء العرب وقادتهم رفضوا الهدنتين رفضا تاما، واستمروا على القتال، مهما كانت الظروف، لما تمكن اليهود مما تمكنوا منه بعد ذلك.

٦ ـ الذين اشتركوا فى الدفاع عن فلسطين من الجيوش العربية، ومنظمات المتطوعين، دافعوا عنها ـ فى مجموعهم ـ بدافع النعرة الوطنية والسياسية، ولم تكن الحماسة الدينية لفلسطين تملأ قلوبهم، وتفيض بها عواطفهم ومشاعرهم، وتسيطر على سلوكهم وأخلاقهم.. وكان هناك عدد من المجاهدين الصادقين الذين يرجون إحدى الحسنيين.. بينما اليهود يعتبرون حروبهم فى فلسطين إنما هى حروب دينية محضة، وأن موتهم على ترابها شرف لهم، وقد استغلوا هذه النواحى الدينية فى التأثير على الإنجليز والأمريكان ليساعدوهم فى بلوغ غايتهم، وإسكانهم فى فلسطين.. وعن طريق هذه الدعاية الدينية اليهودية جمعت الصهيونية العالمية الأموال الطائلة التى استخدمتها فى هذه الحرب، كما أنها عن طريق هذه الدعاية سخرت لخدمتها إنجلترا وأمريكا وغيرهما من الدول.

أهم الأسباب الخارجية :

وأهم الأسباب الخارجية ما يلى:

١ ـ دافع العداء والحقد للإسلام والمسلمين.. وهو الذى يجمع بين اليهودية والنصرانية والشيوعية .. ويدفع بهم جميعا إلى الوقوف صفا واحدا تجاه الإسلام والمسلمين، وإن اختلفت الأدوار التى تناط بهؤلاء أو أولئك.

٢ ـ ضلالات اليهودية التى ذاق منها الأوربيون الويلات.. فما إن استقر اليهود فى دول أوربا، وازداد عددهم، ونمت قوتهم بعد طردهم من فلسطين فى أول عهد المسيحية ـ كما أسلفنا ـ حتى أخذوا يطبقون تلك الضلالات التى امتلأت بها كتبهم.. وكانت حصيلة السلوك اليهودى المبنى على الحقد والكراهية والاستعلاء والجشع والإجرام، (١) أن أخذت شعوب أوربا تدافع عن نفسها أمام هذا البلاء الذى كان يحل عليها مع كل موجة من موجات الهجرة اليهودية !

ومن يدرس التاريخ يلاحظ كيف أن جميع شعوب الأرض أعطت لليهود فرصة

---

(١) خطر اليهودية : ١٠٦ وما بعدها بتصرف.

للعيش كسائر الناس فى البلاد التى يلجأون إليها، ثم ما لبثت تلك الشعوب أن فتكت بهؤلاء اليهود، بعد أن تبين لها الخطر الذى يرافق شعب اليهود، ويهدد سكان البلاد الأصليين بالدمار الأخلاقى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى!

وكانت أحسن فترة فى تاريخ البشرية تنبهت بها شعوب العالم الغربى إلى خطر اليهود، هى ما بين القرن الحادى عشر والتاسع عشر، وفيها أدركت شعوب أوربا أن اليهود يزدرون المسيح والمسيحية، ويهدفون إلى القضاء على أتباع المسيح.

وفيها أدركت تلك الشعوب أن الشعب اليهودى لا يمكن أن يعيش مع أى شعب آخر فى الوجود إلا على أساس استعباد ذلك الشعب، وتسخير عقول أبنائه وأرواحهم ودمائهم وأموالهم فى خدمة اليهود، وأدركت كذلك أن ألاعيب اليهود وخططهم الدنيئة تسيطر بيسر على أرواح القادة والزعماء وأقلامهم وآرائهم، وتسيرها حسب أغراض اليهود، وأدرك العقلاء أن هؤلاء اليهود يسعون إلى استبدال العقيدة فى الله إلى يهوه إله اليهود، وآمنت شعوب أوربا أن اليهود يحلون امتصاص دم غير اليهودى لاستخدامه فى فطير عيد الفصح كل عام، وأن الحوادث التى وقعت وعرفت فى العالم تثبت هذه الجريمة البشعة!

وحينما أفاقت شعوب أوربا من غفلتها هبت ترد العدوان، وتدفع الخطر، قبل أن يستفحل الداء العضال، ويستشرى السرطان اليهودى، فيفتك فى أجسام ملايين البشر، ويحولهم إلى عبيد لخدمة اليهود!

ففى بريطانيا، وهى حامية اليهود والمدافعة عن الصهيونية ــ كما أسلفنا ــ كان تعذيب اليهود وتشريدهم والفتك بهم، بعد أن لمس الشعب البريطانى خطر اليهودية .. حدث ذلك فى عهد الملك جون «يوحنا» الذى أمر بحبسهم فى جميع أنحاء المملكة.. وفى عهد «هنرى الثالث» كان تعذيبهم وحبسهم بعد أن اكتشف أنهم ينزعون جزءا من ذهب النقود الرسمية وفضتها، مما أدى إلى خراب اقتصاد البلاد، وعاقبهم على ذلك الملك سنة ١٢٣٠م بأن يدفعوا إلى الخزينة ثلث أموالهم المنقولة.. وفى عهد الملك «إداورد الأول» سنة ١٢٧٢م كانت محاكمة اليهود، وحكم بالإعدام على مائتى يهودى ثم أمر بعد ذلك بطرد اليهود من بريطانيا فى غضون ثلاثة أشهر وذلك سنة ١٢٩٠م ولم يصبر الشعب البريطانى حتى تنقضى المدة ويتخلص من اليهود نهائيا، بل هجم على تجمعاتهم قتلا وحرقا، وفى قلعة يورك التى احتمى بها اليهود حرق الإنجليز خمسمائة يهودى، مما أرغم الملك على

---

(١) انظر الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين : الجامعة العربية ١٩٥٧م.

سرعة إجلائهم قبل أن يفتك بهم الشعب فى كل مكان.. ولم يبق فى بريطانيا يهودى واحد طوال ثلاثة قرون، إلى أن جاء «كروميل» وقبل الرشوة التى قدمت له من يهود هولندا لمساعدته على اغتصاب الملك من شارل الأول..

وكذلك فعل الفرنسيون باليهود، ذبح وقتل وحرق وتشريد وطرد من البلاد.. طردهم « لويس أغسطس» أولا، ثم عادوا إلى البلاد بعد عشرين سنة، وفى عهد «لويس التاسع» ألغى ثلث ما كان لهم من ديون... ثم أمر بحرق جميع كتبهم وخاصة التلمود.. وطردوا من جديد فى عهد «فيليب الجميل» وأصابهم من القتل والنهب شىء كثير ثم عادوا إلى البلاد... وفى سنة ١٣٤١م هاج الشعب فى أواسط فرنسا، وذبحو أعداد كبيرة وطردوهم، ولم تأت سنة ١٣٩٤م وفى فرنسا يهودى واحد.. [1] ثم عاد اليهود إلى فرنسا بعد تشردهم من أسبانيا.. ولم يؤذن لهم بالسكنى فى المدن إلا فى أواسط القرن السادس عشر.. وفى الثورة الفرنسية ١٩٧٠م استغلوا «ميرابو» .. ثم حاول «نابليون» استغلالهم لمساعدته.. وحينما عاد إلى فرنسا قال عنهم ما معناه: إنهم حثالات البشر وجراثيمه...

وفى ألمانيا كان آخرما تلقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد «هتلر» ابتداء منْ السنة التى تولى فيها حكم ألمانيا ١٩٣٣م إلى السنة التى سقط فيها حكمه ١٩٤٥م.

وفى أسبانيا كان الفتك بهم أيضا.. وقد صدر المرسوم فى ٣١ مارس ١٤٩٢م وفيه: «وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون فى بلادنا ... ـ ومن غير تمييز فى الجنس أو الأعمار ـ أن يغادروا البلاد فى غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أى ظرف أو أى سبب.

ومن أجل أن يتدبر اليهود أمورهم استعدادا للرحيل منحناهم حمايتنا الملكية أرواحهم وأملاكهم لغاية آخر يوليو، ويسمح لهم كذلك بأن ينقلوا معهم برا أو بحرا ما يملكون، باستثناء الذهب والفضة والعملة الذهبية والأشياء الأخرى التى يشملها قانون المنع العام»[2].

وكذلك وقع لليهود فى كل من روسيا وبولندا وإيطاليا ورومانيا وبلغاريا وسويسرا وهنغاريا.. والمذابح التى وقعت لهم فى روسيا على مر الأزمنة وفى مختلف العصور يعجز القلم عن وصفها.. وفى إيطاليا حاربهم البابوات وأصدروا المراسيم العديدة بتكفيرهم

---

(١) انظر: المرجع السابق : ١١٤ هامش.

(٢) انظر المرجع السابق : ١١٨ هامش.

وتسفيه معتقداتهم[1].

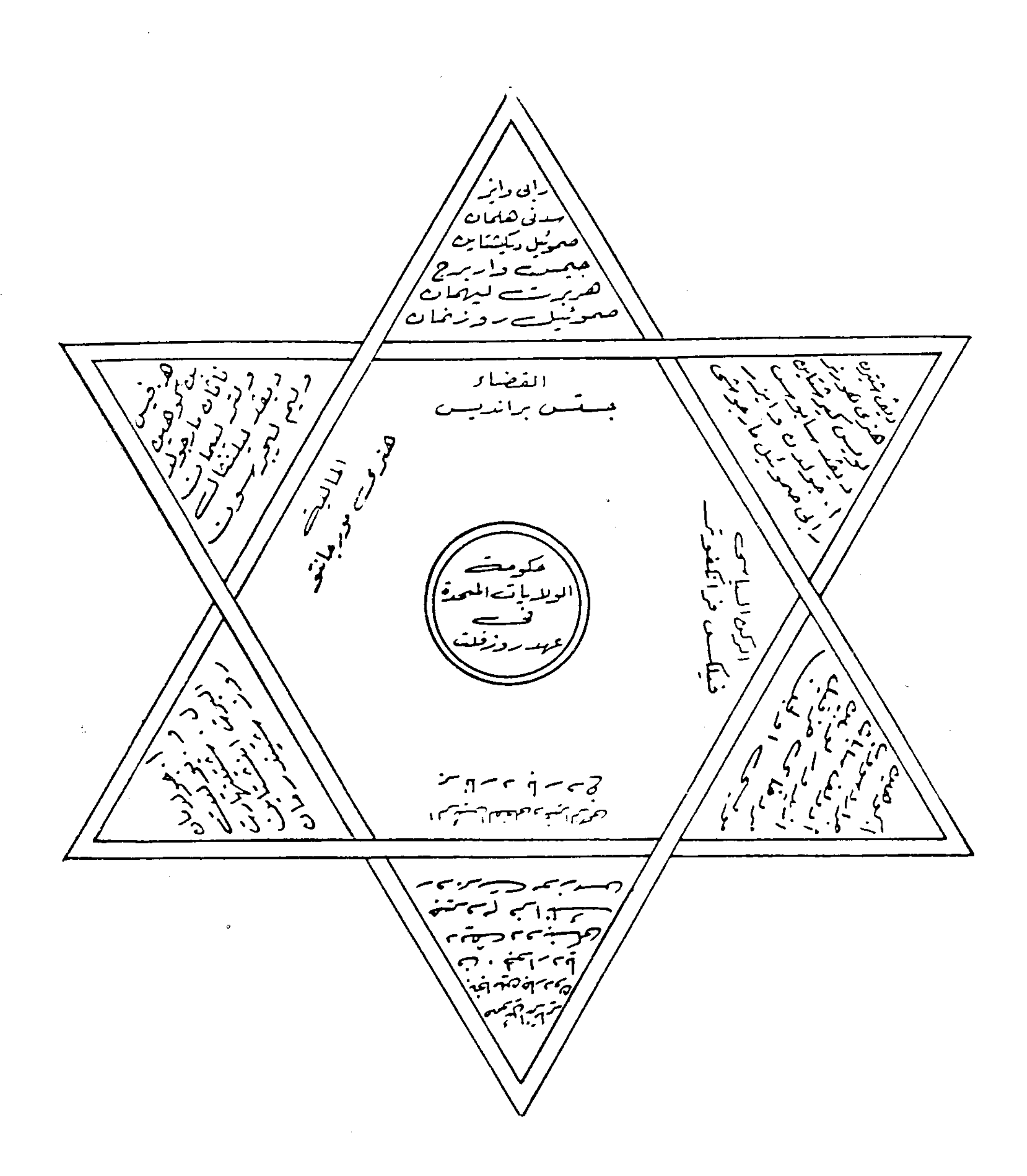
وفى أمريكا التى اكتشفت فى القرن الخامس عشر[2] فقد تدفق اليهود بأعداد كبيرة فى القرن التاسع عشر .. ومنذ منتصف هذا القرن حتى منتصف القرن العشرين احتشد اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية، حتى بلغ عددهم نحو ستة ملايين يهودى، نصفهم يعيشون فى مدينة واحدة، هى نيويورك.. وفى عهد «روزفلت» اليهودى اتخذت النجمة شعارا رسميا لدوائر البريد، وللخوذ التى يلبسها الجنود فى الفرقة السادسة، وعلى أختام البحرية الأمريكية،وعلى طبعة الدور الجديد، وميدالية رئيس الجمهورية، وطفراء الشرطة فى شيكاغو، وشارة الصدر التى يضعها العمدة فى كثير من المناطق.

ولقد صور الأمريكى «أدموندش» فى كتابة (Itestify) هذا الشعار اليهودى، وعلى حافات النجمة الست أسماء أقطاب اليهود الذين كانوا يحكمون فى عهد «روزفلت» وخلفائه من بعده. والصورة كما يلى :

---

(١) انظر المرجع السابق: ١١٩ هامش.

(٢) المرجع السابق: ٢٠٠ وما بعدها بتصرف.



رابي وايز
سدني هلمان
صموئيل دكيشتاين
جيمس واربرج
هربرت ليهمان
صموئيل روزنمان
القضاء
جستس برانديس
المالية
هنري مورجانتو
حكومة
الولايات المتحدة
في
عهد روزفلت
ه. فيس
بن كوهين
ناثان مارجولد

وامتـد نفوذ اليـهود إلى كل ركـن فى الولايات المتحدة.. وغدا الشعب الأمريكى مضللا أعمى لا يرى إلا من خـلال ما يقدمه اليهود.. وأصبح كل رئيس بل كـل مرشح وكل عضو فى مجلس النواب «الكونجرس» مـخدرا بالأفيون اليهودى، عاجزا عن الحركة مشلـولا، تقوده القوات السـرية الموجهة حيثما تشاء. وأصبح كل رئيس أمريكـى فى أية انتخابات تتم فـى الولايات المتحدة سواء كانت انتخابات الريـاسة أو الحكام أو الكونجرس أو البلديات أو أعـضاء الهيئات والشركـات؛ يستجدى أصوات اليهـود، فإذا نجح أوهموه أنهم هم الذين نجحـوه، وإذا سقط أوهموا خصمه الناجح أنهم هـم الذين نجحوه، وهكذا يكونون هم دائما وأبدا الرابحين على حساب مصلحة أمريكا وشعب الولايات المتحدة.

وقبل مأسـاة «فورستال» وزير دفاع الولايـات المتحدة بمائة وستين سنة، قام «بنـجامين فرانكـلين» ينبه شـعب الولايات المتحـدة، ويحذرهم من خطـر اليهود. وأعلن فـى المؤتمر الذى انعقد لإعلان الدستور سنة ١٧٨٩م ما يلى (١):

Ther is a great danger for United States of America, this great danger is the Jew. Genlemen, in every land which the Jwes have settled. they have depressed the normal level and lowered tho degrre of commercial honesty. They have remained apart and unassimilated - they have created a state within a state, and when they are opposed they attempt to strangle the nation financially as in the case of Portugal and Spain. For more than 1700 years, they have lamented their sorrowful fate. namely, that they were driven out of their motherland,but gentlemen,if the Civilized world today should give them bak Palestine and their property, they would immediately find pressing reasons for not returning there. Why? because they are vampires. they cannot live among themselves, they must live among Christians and others who do not belong to their race.

If they are not excluded from the United States by the Constitution, within less than 100 years, they will stream into this country in such numbers they will rule and destroy us and change our form of Government for which we Americans shed our blood and sacrificed life, property, and personal freedom.

If the Jews are not excluded, within 200 gears our children will be working in the fields to feed the Jews while they remain in the counting House gleefully rubbing their hands.

I warn you, gentlemen, if you do not exclude the Jews forever, your children's chidren will curse your in your graves. their ideas are not those of Americans even when they have lived among us for ten generations.

(1) The Nameless War, Capt. Ramsay, London 1952.

The leopard cannot change its Spots. The Jews are danger to this land and if they are allowed to enter they will imperil our institutions - they should be excluded by the constitution." .

ومعناهـا:

«هنالك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر هو «اليهودى».

أيها السادة: حيثما استقر اليهود، نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف. إنهم لا يندمجون بالشعب. لقد كونوا حكومة داخل الحكومة. وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا كما حدث للبرتغال وأسبانيا. ومنذ أكثر من ١٧٠٠ سنة وهم يندبون مصيرهم المحزن، لا لشىء إلا ادعائهم أنهم طردوا من الوطن الأم، ولكن تأكدوا أيها السادة أنه إذا أعاد إليهم اليوم عالمنا المتمدين فلسطين فإنهم سيجدون المبررات الكثيرة لعدم العودة إليها. لماذا؟ لأنهم من الطفيليات التى لا تعيش على نفسها، إنهم لا يستطيعون العيش فيما بينهم، إنهم لابد أن يعيشوا بين المسيحيين وبين الآخرين الذين هم ليسوا من جنسهم.

إذا لم يستثن اليهود من الهجرة بموجب الدستور، ففى أقل من مائة سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا الفردية.

إذا لم يستثن اليهود من الهجرة، فإنه لن يمضى أكثر من ٢٠٠ سنة ليصبح أبناؤنا عمالا فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود الذين يجلسون فى بيوتهم المالية مرفهين يفركون أيديهم بغبطة.

إنى أحذركم أيها السادة، إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد، فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم. إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال، والنمر لا يستطيع تغيير لونه. اليهود خطر على هذه البلاد، وإذا سمح لهم بالدخول فسوف يخربون دستورنا ومنشآتنا. يجب استثناؤهم من الهجرة بموجب الدستور».

ما أصدق هذه النبوءة، لولا أن صاحبها قد أخطأ فى تقدير المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى مزرعة يهودية. الكادحون فيها هم الشعب الأمريكى، والمتنعمون بخيراتها هم اليهود الطفيليون الذين يعيشون دائما وأبدا على دماء غيرهم من الضحايا.

فقد قدر بنجامين فرانكلين هذه المدة بمائتى سنة تنتهى فى ١٩٨٩م، بينما استطاع

اليهـود أن يهوِّدوا الولايات المتحدة قبل خمسين سنة مـن هذا التاريخ، لتصبح سياستها وأسلحتهـا وعلمها وفنهـا وأموالها وخيراتها مـجنـدة لخدمة اليهـوديـة العالميـة وأدواتها التنفيذية ــ الماسونية ــ الصهيونية.

وهذا بلاشك عامل مـهم وسبب مباشر جـمع بين هـؤلاء جميعا، ووحد هدفـهم، ليجمعوا اليهـود من جميـع البلاد إلى بلاد المسلمين، بـدافع التخلص من تلك المفاسد الكثيرة التي تأتي من اليهود من جهة، ودافع الحقد للإسلام والمسلمين من جهة ثانية.

٣ ــ جعل الدولة اليهودية فى فلسطين متكأ لهؤلاء وأولئك، وخنجرا مسموما يشهر فى وجه الدول الإسلامية ، [١] كلما توجسوا منها خيفة أو حتى مقاومة.

٤ ــ اتخـاذ الوطن اليـهودى حاجزا يـفصل الأقطـار الإسلامية فـى آسيا عن الأقـطار الإسلامية فى أفريقيا، ويقطع الصلة بين هاتين القارتين.

٥ ــ اتخاذ اليهود عائقا دون تقدم الأمة الإسلامية فى أقطارها الواسعة، والتى تقع فى أهم مـراكز الـعالم الـتجـارية والجغـرافية والـعسـكرية والـتى يـزداد عدد سكـانهـا زيادة مستمرة.. والتى يريد هؤلاء وأولئك أن يجعلوها دائما فى تعداد الدول المتخلفة خوفا من أن تعود إليها سيرتها الأولى ..

وليـست تلـك المحاولات وليـدة سنوات قـريبة، بـل هى محـاولات ــ كمـا عرفنـا ــ قديمة.. فـفى سنة ١٩٠٧م تولى «كامبـل بترمان» رئاسة الوزارة البـريطانية، فقام بتـشكيل لجنة مكونة من بعض علماء التاريخ، ورجال القانون والسياسة، من عدة دول،ووجه خطابا إلى تلك اللجنة حدد فيه مهمتها، ومما جاء فيه :ــ

«إن الإمبراطـوريات تتكون وتتسع وتقوى، ثم تنـحل رويدا وتزول، والتاريـخ مليء بمثل هذه الأمثـلة، وهى لا تتغير بالـنسبة لكل نهضـة ولكل أمة، فهناك إمبـراطوريات روما وأثينا والهند والصيـن، وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها. فهـل لديكم وسائل يمكن أن تمنع سقوط إمبراطوريتنا، أو تأخر مصير الاستعمار الأوربى بعد أن بلغ الآن الذروة..؟».

وبعد أن ظـلت هذه اللـجنة سبـعة أشهر فـى دراسات وبحوث.. قـدموا تقريـرا إلى وزارة المستعمرات البريطانية... ومما جاء فيه قولهم :

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢: ٤٦٨ وما بعدها بتصرف.

«إن الخطر ضد الاستعمار فى آسيا وفى أفريقيا ضئيل، ولكن الخطر الضخم يكمن فى البحر المتوسط.. وبناء عليه:

فعلى الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة.. وتأخرها وإبقاء شعوبها على ما هي عليه من تفكك وتأخر وجهل .. وعليها ــ أيضا ــ ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي فى هذه المنطقة عن الجزء الآسيوى، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشرى قوى، غريب بمثل الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا، حيث يشكل فى هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس، قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة...» .

وأخذت بريطانيا تبحث عن هذا الحاجز البشرى الغريب الذى يحتل الجسر البرى الذى يربط آسيا، بأفريقيا، ويكون صديقا للاستعمار، وعدوا للمسلمين سكان المنطقة.. فهداها تفكيرها إلى اختيار اليهود الذين كرههم العالم كله ووقف منهم تلك المواقف التى أشرنا إليها، لتخلق منهم دولة فى فلسطين تكون قوة صديقة لها، وعدوا لسكان هذه المنطقة .. ومنذ ذلك التاريخ، وبعد أن خضعت فلسطين للانتداب البريطانى ــ كما أسلفنا ــ أخذ الإنجليز يسعون لجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود.. ثم انضمت إليها بعد ذلك دول الكفر.. وخصوصا أمريكا...

صور من الإرهاب :

عرفنا كيف كانت بداية الإرهاب اليهودى.. ويضيق بنا المقام لوحاولنا ذكر هذا الإرهاب كما حدث، ولا ذكر أهمه، وحسبنا أن نذكر صورا منه تعبر عن مدى طغيان اليهود الذين عملوا بكل الوسائل التى يعجز الخيال الشاخص عن تصورها على إبادة ما تبقى من العرب عندهم أو إجبارهم على النزوح عن إسرائيل نهائيا.... ففى ٩ أبريل ١٩٤٨م هجم اليهود على قرية [١] دير ياسين الكائنة فى قطاعهم مطمئنة إلى وعودهم وعهودهم، عزلاء من كل سلاح، وجمعوا سكانها صفا واحدا، رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا.. ثم رشوهم بالنار، وأمعنوا فى تعذيبهم أثناء عملية القتل والذبح، فبقروا بطون الحبالى وأخرجوا الأطفال وذبحوهم، وقطعوا أوصال الضحايا، وشوهوا أجسامهم حتى يصعب التعرف عليها، ثم جمعوا الجثث وجردوها من الألبسة، وألقوا بها فى بئر القرية !

---

(١) خطر اليهودية : ٥٧.

وعندما جاء مندوب الصليب الأحمر الدكتور «ليز» ورأى الجريمة ولم يقو على الوقوف، حتى تتم عملية إحصاء الجثث «٢٥٠» فأغمى عليه، وغادر المكان!

إنها طبيعة اليهود الوحشية، وهمجيتهم التى لا تجارى، مارسوها منذ عرف تاريخهم الأسود، وما زالوا يمارسونها إلى يومنا هذا كلما أحسوا بقوتهم، وواتتهم الفرصة للانقضاض..

وهناك مذبحة شرفات فى ٧ فبراير ١٩٥١م... [١]

ومذبحة عيد الميلاد فى ٦ يناير ١٩٥٢م ..

ومذبحة قبية فى ليلة ١٤ أكتوبر ١٩٥٣م..

ومذبحة قتل الأطفال فى ٢ نوفمبر ١٩٥٤م...

ومذبحة غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥م ..

ومذبحة شاطىء طبرية فى ١١ ديسمبر ١٩٥٥م ..

ومذبحة غزة الثانية فى ٥ أبريل ١٩٥٦م ..

ومذبحة غرندل فى ١٣ سبتمبر ١٩٥٦م...

ومذبحة حوسان فى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٦م ..

ومذبحة قلقيلية فى ١٠ أكتوبر ١٩٥٦م...

ومذبحة كفر قاسم فى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦م ..

وحسبنا أن نذكر قول بعض الذين شاركوا فى هذه المذبحة وحوكموا صوريا، حيث سأل أحد الصحفيين الضابط «مالينكى» ما يلى:

س : هل أنت نادم على ما فعلت ؟

جـ : بالعكس .. لأن الموت لأى عربى فى إسرائيل معناه الحياة لأى إسرائيلى.. والموت لأى عربى خارج إسرائيل معناه الحياة لإسرائيل كلها.

س : ماذا كان شعورك بعد الحكم عليك؟

---

(١) انظر التفاصيل في : المرجع السابق: ٣٢٦ ومابعدها.

جـ : كنت مطمئنا للمعاملة التى سأعامل بها، لأن العمل الذى قمت به واجب وطنى ودينى.

وسئل الملازم «غبريال دهان» :

س : كم عربيا اصطدت فى المجزرة ؟

جـ : ١٣ فقط.

س : ماذا كان شعورك أثناء المجزرة؟

جـ : كنت متعطشا للدم العربى، وقد شربت حتى سكرت..

س : هل فى نيتك معاودة الشرب؟

جـ : إذا سمحت الظروف.

* * *



الفصل الثالث

الطريق إلى النصر

إسرائيل المعاصرة ـ اليهودية والدولة المعاصرة ـ رسالة موسى واليهودية ـ الإسلام دين ودولة ـ القومية كبديل عن دين الله ـ التقدم العلمي ـ في القرآن والمسألة العلمية ـ معطيات القرآن ـ التناغم بين الثنائيات ـ منهج عمل شامل ـ العلم هو الدين ـ دعوة لتطوير الحياة ـ هل ثمة أكثر دلالة؟ ـ موقفان ـ الموقف الوسط ـ معطيات العلم ليست سواء ـ ورطة الإنسان المعاصر ـ نظامان للغلبة والانتصار ـ إزالة أسباب الخذلان ـ نبوءة صادقة ـ ما أشبه الليلة بالبارحة ـ نبوءة النصر ـ معركة عقيدة ـ وحدة القيادة ـ وعد الله ـ النصر النهائي ـ الجهاد اليوم .



إسرائيل المعاصرة :

أول ما يطالعنا من الحديث عن طريق النصّر هوضرورة معرفة إسرائيل، فوق معرفتنا السابقة لها،من خلال :

١ ــ أسطورة الوطن اليهودى .

٢ ــ الفكر اليهودى.

٣ ــ موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ.

٤ ــ الطبيعة اليهودية .

٥ ــ التآمر اليهودى على حياة الرسول ﷺ.

٦ ــ اليهود والخيانة.

٧ ــ القضاء على اليهود عسكريا.

٨ ــ محاكمة اليهود.

٩ ــ الخطر اليهودى.

وقد فصلنا القول فى ذلك تفصيلا..

أول ما يطالعنا بعد ذلك هو: أى رباط لإسرائيل المعاصرة: فى إقامة دولة، وبقاء دولة، والتماسك فى إطار الدولة غير اليهودية؟ (١) .

أهو رباط اللغة العبرية،وهى التعبير عن تاريخ بنى إسرائيل على أساس من اليهودية فى الكفاح من أجلها أو فى تحريفها وتأويلها؟

أهو رباط القومية اليهودية،وليست هناك قومية يهودية لا يحتوى مضمونها: اليهودية كدين؟

أهو اللغات العديدة التى تعلمها اليهود فى أوطانهم الجديدة فى العالم، بعد أن تفرقوا إليها، أو هو التاريخ المختلف للشعوب التى استقر بين أبنائها هؤلاء النازحون اليهود؟

أهو القيم الإنسانية البحتة التى تعلو بالشعب اليهودى فوق الشعوب وفوق الأديان؟

---

(١) خمس وسائل إلى الشباب المسلم المعاصر: ٦٠ وما بعدها بتصرف.

وهل هذه القيم تصلح لأن تكون الرباط بين اليهود، ولا تصلح لأن تكون الرباط بين أفراد شعب آخر من الشعوب البشرية؟

ثم هل توجد فلسفة غير متحيزة .. فلسفة فوق مستوى الشعوب والأجناس، وفوق الأديان جميعها؟

إن اللغة العبرية لو اتخذت الرباط المشترك فى إقامة دولة إسرائيل المعاصرة وهى تعبر فى تاريخ إسرائيل عن اليهودية فى مراحلها المختلفة ـ فليست إذن اللغة العبرية المكونة من ألفاظ وتراكيب هى الرباط. إنما مضمونها التاريخى. وهذا المضمون ذو صلة باليهودية كدين.

والقومية اليهودية ليست فى تحليل واقعها سوى الوعاء التاريخى والدينى واللغوى فإن اتخذت هذه القومية الرابطة فى دولة إسرائيل المعاصرة، فاليهودية تمثل القسط الواسع، والمتميز منها.

وليست هناك قومية تعتمد على لغة القوم وحدها كتعبير وأساليب، وإنما أية لغة هى كائن حى، مظهره: التعبير باللفظ والتركيب، وحقيقته: تاريخ القوم.. التاريخ الذى تنتسب إليه. وأخلص ما يحمله تاريخ القوم ـ أى قوم ـ هو عقيدته، وتقاليده، وكفاحه فى سبيل استقلاله أو سيادته .

والذى يحافظ على استقلاله وسيادته، هو ذلك الذى تميزت شخصيته. والعناصر الأساسية فى شخصية أى قوم من الأقوام هى:

الاعتقاد الخاص برسالة معينة فى الحياة.

والتقاليد التى تربط بين الأفراد.

أما اللغات العديدة التى تعلمها النازحون من اليهود وسط الشعوب التى استقروا فيها، وأما تاريخ هذه الشعوب التى استوطنوها ـ هذه وتلك ـ لا تصلح أن تكون الرباط فى إقامة دولة، وإن صلحت أن تكون وسيلة ترابط بين مجموعة وأخرى من اليهود.

والقيم الإنسانية ـ المدعاة ـ التى تدعى أية فلسفة تجردها عن التحيز، وبالتالى تدعى أنها فوق الشعوبية والمذهبية والطائفية والدينية.. التى تدعى أنها عالمية، لا توجد بعد ..

وتوجد فقط يوم يوجد الإنسان العالمى الذى يفكر تفكيرا عالميا فى الإنسانية وحدها .. لا يتأثر ببيئة ولا وراثة .. وما يُدّعى أنه تفكير عالمى اليوم فلا يعدْو أن يكون تفكيرا كالماسونية مثلا، لأنها وإن ادعت العالمية فهى فى خدمة إسرائيل منذ وجود هذه الفكرة!

واللغة العالمية «الاسبرنتو» لا تعبر عن تفكير إنسان عالمى. بل هى بالأحرى عامل لتذويب خصائص الشعوب، ومحاولة دمجها وإزالة الواصل بينها فى الاعتقاد والروابط الخاصة لصالح مجموعة مشردة، هى اليهود، كى تعيش فى تسلل واطمئنان، وكى تمارس نشاطها المالى والعقلى فى غيبة من الوعى الوطنى الذى تحييه اللغة الوطنية.

اليهودية والدولة المعاصرة:

ولكن إذا صلحت اليهودية ــ أو تعينت دون العبرية ودون القومية اليهودية ودون فلسفة القيم غير المتميزة ـ أن تكون الرباط بين اليهود فى العالم، أو فى أى مكان منه هل تصلح مع ذلك أن تكون أساسا لدولة عنصرية؟ .. لإسرائيل كدولة تحاول أن تثبت وجودها؟

إن الدولة العصرية هى التى تكون لجميع الأفراد فيها حمايتها للجميع على السواء، والعمل فيها لا يحرم منه راغب فى العمل بسبب عنصره أو طائفيته، أو عقيدته، أولغته.

هى الدولة التى تتيح لجميع الأفراد حرية ممارسة العبادة وعدم الإكراه فى الدين.. هى التى لا تميز مجموعة من أفرادها فى الاعتبار البشرى على مجموعة أخرى فيها، على الأخص لسبب الدين أو العنصر.

فهل فى اليهودية ما يحول دون أن تكون دولة إسرائيل دولة عنصرية إذا قامت على على أساس منها؟

هل فى اليهودية ما يجعل اليهود وحدهم أصحاب ميزة فى الاعتبار البشرى على من عداهم فى العقيدة فى دولة إسرائيل المعاصرة؟

إن الرجوع إلى اليهودية فى صلتها برسل الله عليهم صلوات الله وتسليماته.. يمكن أن ينير الطريق إلى جواب هذا السؤال .

وخير مصدر نرجع إليه هو القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

رسالة موسى واليهودية :

وإن رسالة موسى عليه السلام ـ كما أسلفنا ـ تختلف عن اليهودية التى يتبعها اليهود، والتى يتخذون منها أساسا للترابط فى قيام دولة إسرائيل المعاصرة. بقول الله عز وجل فى وصف رسالة موسى:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (٢).

فقد وصف كتاب موسى بأنه كان قبل القرآن شاهدا عليه ومؤيدا لما جاء به، وهو لذلك إمام ورحمة للناس جميعا.

بينما يقول فى وصف اليهودية بين بنى إسرائيل:

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (٣).

ثم يقول:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤).

---

(١) النمل: ٧٦ ـ ٧٧. (٢) هود: ١٧. (٣) البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٨. (٤) البقرة: ١٤٠.

وسبق أن فصلنا القول فى عرض هذه الآيات وغيرها.. وهنا نجد القرآن لا يقبل اليهودية ومن على شاكلتها كدين لهداية البشرية، وإنما دين الله مصدر هدايته هو « ملة إبراهيم حنيفا» فاليهودية ومن على شاكلتها دين فريق معين من البشر، وليست الدين الذى هو للناس جميعا، وهو وحده الذى يقبل عند الله، وهو الدين الذى جاء به الرسل جميعا.

ثم فى قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

ينفى أن يكون إبراهيم عليه السلام يهوديا، ثم يثبت أنه كان حنيفا مسلما، وهذا يوضح أن هناك اختلافا وفجوة بين ما لليهود من يهودية.. وبين ما عليه المسلمون من إسلام الذى هو دين رسل الله عليهم صلوات الله وتسليماته.

وتختلف اليهودية عن كتاب موسى، كما تختلف عن ملة إبراهيم وعما أنزل إلى الرسل جميعا.

فكتاب موسى، وما أنزل على الرسل.. الإسلام الذى جاء به القرآن مصدقا لما بين يديه من هذه الرسالات.. وإذن هنا دين واحد هو الإسلام الذى سجله القرآن الكريم على لسان الأنبياء ـ كما أسلفنا ـ وهنا شىء آخر يختلف وهو: يهودية بنى إسرائيل.

والحديث ـ كذلك ـ عن اليهودية ليس هو الحديث عن دين الله ـ كما عرفنا ـ والسؤال الآن: بم تختلف اليهودية عن كتاب موسى؟

ويجيب القرآن الكريم أيضا عن هذا السؤال فى مثل ما يذكره قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٢).

---

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) المائدة: ١٨.

فكل من اليهود والنصارى صنع فى الرسالة ما يجعلها مصدر تميز لهم، بحيث يتجاوزون هم فى أنفسهم، عن طريق التأويل فيها مستوى الإنسان إلى مستوى آخر..وهو كما يزعمون ــ وهو مستوى الأبناء أو الأحباء.

وقد كان بنو إسرائيل يدعون أنهم أولاد إبراهيم عليه السلام. ولذا لا يعاقبون على ذنوب يرتكبونها، وإن عوقبوا عليها ــ على أسوأ الفروض ــ لمدة قصيرة، وقد رد عيسى عليهم ــ كما أسلفنا ــ بأنهم من أب هو إبليس ولذا جاء القرآن ينفى هذا الادعاء، ويؤكد أن الناس جميعا سواء أمام الجزاء، وأنه لا فرق بين مجموعة وأخرى، ولا بين شعب وآخر فى ذلك.. جاء قول القرآن هذا فى قوله:

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

فشعب بنى إسرائيل ليس شعبا مختارا يتميز عما سواه من الشعوب، كما تنطق رسالة الحق فى القرآن، وإن ادعى اليهود ذلك لأنفسهم.

ثم إن الذين يكفرون بروحية الدين تحت تأثير الاتجاه المادى فى الإيمان بالله، ويباشرون هذا الاتجاه فى ارتكابهم الجرائم الاجتماعية، رغم إعطائهم العهد والميثاق على عدم ارتكابها، لا يستبعد منهم أن يخالفوا هذه الروحية فى تمييز أنفسهم عن سواهم بعد أن يعلنوا الإيمان بها.

فقد طالبوا برؤية الله عيانا ــ كما أسلفنا ــ كطريق للإيمان به:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾[2].

---

(١) البقرة: ٨٠ ــ ٨٢. (٢) النساء: ١٥٣.

وباشروا الجرائم الاجتماعية ـ كما عرفنا ـ رغم المواثيق المؤكدة على عدم ارتكابها:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

واستمر شعب بنى إسرائيل تحت تأثير المادية قرونا وأجيالا عديدة حتى اليوم، رغم وجود كثير من الأنبياء يوضحون لهم رسالة موسى، رغم أن عيسى جاء على أثرهم برسالة الله إليهم مرة أخرى:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ (٣).

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (٤).

ومما اختلفوا فيه عن كتاب الله قولهم: إنهم شعب الله المختار، ومع ذلك ظلوا ماديين ومدّعين لأنفسهم بسبب ماديتهم ما يتفوقون به على غيرهم، ولهذا كانوا ظالمين لأنفسهم:

(١) البقرة: ٨٤ ـ ٨٥. (٢) المائدة: ٤٦.
(٣) الحديد: ٢٧. (٤) الصف: ٦.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (١).

فبنوا إسرائيل ظلوا مختلفين عن دين الله ورسالته على عهد موسى عليه السلام، ثم اختلفوا كذلك عن دين الله ورسالته على عهد عيسى عليه السلام.. ومنهم ــ وهم قلة ــ أصبحوا حواريين له.. وهم الذين أخذوا اسم النصارى من أبناء هذا الشعب الإسرائيلي:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢).

واختلافهم إذن عن دين الله ورسالته ــ سواء على عهد موسى أو على عهد عيسى عليهما السلام ــ هو على نحو ادعاءاتهم التي سجلها القرآن الكريم فيما يحكيه عنهم، من قولهم: «نحن أبناء الله وأحباؤه» وقولهم «لن تمسنا النار إلا أياما معدودة» إلى غير ذلك من الآيات التي عرضنا لها من قبل.

وقد جاء القرآن الكريم بعد ذلك يناشدهم عدم الغلو في الدين، وعدم اتباع الهوى.. ولكن ظل نداؤه إياهم دون جدوى... واستحقوا اللعن بسبب ظلمهم لأنفسهم واختلافهم عن دين الله .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٣).

---

(١) الزخرف : ٦٣ ــ ٦٥. (٢) آل عمران : ٥٢. (٣) المائدة : ٧٧ ــ ٨٠.

فاستعلاء شعب إسرائيل اليوم فى دولتهم العنصرية المعاصرة على أساس من عقيدته اليهودية يحول دون أن يكون الدين من مقومات الدولة، كدولة عصرية يجب أن تسوى بين جميع الأفراد فى الاعتبار البشرى وفى حرية العقيدة.

وتأثر شعب إسرائيل اليوم فى دولتهم العنصرية المعاصرة بالاتجاه المادى ـ الذى ظل ملازما لهم طوال تاريخهم ـ لا يجعل اليهودية أيضا دينا، حتى يعتبر أو لا يعتبر من مقومات دولة عصرية... أى أنه يحول دون اعتبار اليهودية دينا .

واليهودية إذن لا تصاحبها خصائص الرسالة الإلهية، وخصائص دين الله، وأبرز هذه الخصائص:

أولا: المساواة في الاعتبار البشرى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (1) .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (2) .

وثانيا: روحية الدين.. وهى تلك الروحية التى تحول دون الجرائم الاجتماعية فى الأموال والأعراض والأنفس، والتى تحمل على تجاوز دائرة الطفولة البشرية فى التفكير والاعتقاد.. فلا يقف تفكير المؤمن بدين الله وروحية هذا الدين عند حد المحسوس والمشاهد. كما لا يجمد اعتقاده وإيمانه بما يحسه فقط:

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ (3) .

وإذا حال عدم المساواة فى الاعتبار البشرى دون صلاحية ما يدعى له الدين أو العقيدة من أن يكون دينا أو عقيدة، ففقدان روحية الدين أو الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى أكثر إبعادا لما يدعى أنه دين، من أن يكون دينا.

فالاتجاه المادى من شأنه أن يفرق حتى بين الإخوة، والدين من شأنه أن يكتل ويجمع حتى بين الأعداء:

---

(1) الحجرات: ١٣. (2) سبأ: ٢٨. (3) الأنعام: ١٠٢ ـ ١٠٣.

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (1).

الاتجاه المادى ـ كما هو شأن اليهود ـ يشجع الأنانية والفردية.. والدين يشجع روح الجماعة والمشاركة، على حساب الذات وشهواتها.. والأنانية هى داء المجتمع وعدوه الأول.. هى مصدر الخصومات والأحقاد.. هى مصدر الاستغلال والاحتكار .. هى مصدر العبث والفساد، عن طريق الترف والمبالغة فى المتعة المادية.. هى مصدر القتل وإشاعة الفحشاء والمنكر..هى مصدر الشرك والانتهازية والنفاق...

ولذا لا يصدق إطلاقا أن أية أيديولوجية تدعو إلى المبادلة أو المنفعة المادية وحدها تصبح عقيدة أو دينا، فضلا عن أن تكون ذات أثر إيجابى فى حياة من يدعى أنهم يؤمنون بها.. لا يصدق مطلقا أن مذهبا ماديا فى الحياة يشيع روح الإنسانية أو يستهدف المستوى الإنسانى فى المجتمع.

المجتمع المادى يطلب اقتناص الفرصة فى جمع المال والمتع الدنيوية، والدين يطلب الزهد فيها لصالح الإيمان بالله والقيم العليا.. يطلب التضحية حتى بالنفس بعد المال والولد.

واليهودية المادية إذن، واليهودية التى تدعى أنها دين النخبة ودين الشعب المختار لو تأسست عليها الدولة العنصرية العصرية: لكانت عوامل التفرقة فيها متعددة،ولكان الصراع الداخلى أشد وأعنف فيها.. وهى عوامل العنصرية من جانب،والانتهازية المادية من جانب آخر..

ولكنها فى الآونة الأخيرة لا يبدو التفرق فى مجتمعها، ولا التمزق الداخلى فيه، بسبب التركيز على توسعاتها، وعلى ما يضمن لها شبه الاستقرار، ويكفل لها أمنا خارجيا.. ولكن إلى حين.. ولتعلمن نبأه بعد حين.

وعوامل العنصرية إذا أوحت بها عقيدة كان تمزيقها للوحدة الداخلية أمرا لا مفر منه إن عاجلا أو آجلا.. وعوامل الانتهازية المادية لا تسبب فرقة الأنانية فحسب ،

---

(1) آل عمران : 103 .

وإنما مع ذلك تجعل الأخ يحقد على أخيه، ويغدر به، ويتسلط عليه إن أمكن، فى سبيل المتعة المادية..

الإسلام دين ودولة :

وإذا كانت رسالة موسى عليه السلام قد تحولت إلى دين النخبة وشعب الله المختار.. تحولت إلى اليهودية ـ كما عرفنا ـ ومن شأنها عندئذ أن تحول دون اعتبارها مقوما فى دولة عصرية لا تفرق بين الأفراد فيها، ولا ترى للشعوبية أثرا فى تمييز هولاء الأفراد بعضهم عن بعض، فإن الإسلام دين ودولة... وقد جاء مصححا لهذا الاختلاف، ولبيان ما اختلف فيه أهل الكتاب هنا وهناك عن كتاب الله، يضع الناس جميعا أمام الاعتبار البشرى، ويرفع العصمة عن الإنسان إلا فى نطاق ما يكلف به رسوله لتبليغه من وحى الله إلى الناس كافة.

فالإسلام دين الله، ورسالة خاتم النبيين ﷺ ، لا يعرف التفرقة العنصرية ، ولا الشعوبية أساسا لتقدير الناس والأفراد ... وإنما يعرف مقياسا واحد تقاس به منازلهم ومستوياتهم.. وهو مقياس التقوى، أو السلوك الإنسانى المهذب، أو المستوى البشرى الفاضل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

يأيها الناس (٢) يأيها المختلفون أجناسا وألوانا، المتفرقون شعوبا وقبائل.. إنكم من أصل واحد. فلاتختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولاتذهبوا بددا.. ومع ذلك فاليهود يدعون أنهم من نسل إبراهيم عليه السلام .. ومن ثم فهم يتميزون عن غيرهم.. ويرد عليهم عيسى عليه السلام: أنتم من أب هو إبليس!

يأيها الناس ... والذى يناديكم هذا النداء هو الذى خلقكم من ذكر وأنثى .. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل .. إنها ليست التناحر والخصام ـ كما هى طبيعة اليهود ـ إنما هى التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، وإختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضى النزاع والشقاق، بل يقتضى التعاون للنهوض.. بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات.. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعانى من حساب فى ميزان الله.. إنما هنالك ميزان واحد

---

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) فى ظلال القرآن: ٦ : ٣٣٤٨ بتصرف.

تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ والكريم حقا هو الكريم عند الله .. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : ﴿ **إن الله عليم خبير** ﴾ .

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر فى الميزان.. ولكن اليهود هم اليهود .. عنصرية، وحقد، وجنسية، وبغض للإنسانية كلها!

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات فى الأرض، وترخص جميع القيم التى يتكالب عليها الناس. ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد..

ولكن اليهود يزعمون أن لهم إلها خاصا بهم ـ كما أسلفنا ـ وأنهم من جنس مختار!

كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى فى ظل الحق..وهذا هو اللواء الذى رفعه الإسلام، لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت.. وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء.. وكلها جاهلية عارية عن الإسلام !

وهذه هى القاعدة التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى.. المجتمع الإنسانى العالمى، الذى تحاول البشرية فى خيالها المحلق أن تحقق لونا من ألوانه فتخفق، لأنها لاتسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لاتقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الحق..

والإسلام لا يبدأ بالتفرقة بين الأفراد، وإنما يرجىء التفاضل بينهم إلى وقت مسئوليتهم عن التصرف، والسلوك إلى وقت حريتهم وعدم إكراههم على الفعل، بعد أن يضمن لهم أن رسالته قد بلغت إليهم.

وبذلك يصحح الإسلام ما اختلف فيه بنو إسرائيل عن كتاب الله ودينه.. وقد عاقب الحق اليهود بسبب تأويلهم لدين الله وادعائهم أنهم شعب الله المختار، وسلط عليه آلام التفوق فى العنصر والعرق فيما ادعته أوربا من الآرية وتفوقها على السامية فى النصف الأول من قرننا الحاضر.

ولا يعرف الإسلام أيضا القداسة والعصمة للبشر.. فالناس كماهم سواء فى الاعتبار البشرى،

هم سواء أيضاً فى التعرض للخطأ والصواب.. والفاضل بينهم هو الذى لايقصد إلى الخطأ ..

وبهذا أيضا يصحح ما اختلف فيها أتباع عيسى عن كتاب الله ودينه...

والاتجاهات الراديكالية ـ وهى الاتجاهات المتطرفة فى الفلسفة الغربية ـــ فى المجتمعات الأوربية هى فى الأغلب وليدة استنكار القداسة والعصمة للإنسان فى الدين عندهم.

كما أن تصادم الأحداث فى تطور الحياة للمجتمعات المعاصرة هناك يعود إلى الإيمان بحلول الوحدة الثلاثية...

وهكذا لا يعرف الإسلام تفرقة عنصرية أو شعوبية.. إلى آخر ما عرضنا له..

الإسلام يعرف الإنسان كإنسان، ويقدم له المشورة والهداية، كصاحب طبيعة بشرية يعرض لها الخطأ والصواب، والزلل والسداد، والمرض والصحة، والفقر والغنى، والطفولة والشيخوخة،والموت والحياة، والضعة والشرف بالمال أو بالعصبية أو بالحكم، والتواضع والطغيان.. يعرض له النقيض ونقيضه من صفات الوجود.

ويريد للإنسان فحسب ألا يسقط إلى مستوى الحيوان، فى إغفال العقل والقلب، وأن يركز فقط على المعدة والفرج.. يريد للإنسان أن يكون لبنة مصقولة فى بناء مجتمع إنسانى كبير.. وصقلها عن طريق الحد من الأنانية، وإفساح مجال لمعنى الجماعة ومشاركة الحياة والوجود.

القومية كبديل عن دين الله :

والآن إذ ترك الدين القيم فى المجتمعات الإسلامية، وأبعد عن أن يكون من مقومات الدولة العصرية، فذلك يرجع إلى أحد أمرين:

١ ـ إما إلى تقليد المجتمع الأوربى ـ فى غربه أو شرقه ـ تقليدا ينطوى على التبعية المطلقة لتطور هذا المجتمع وأحداثه التى تتعاقب فيه، فى إعراض عن مراجعة الإسلام وتاريخ المجتمع الإسلامى.

٢ ـ وإما سعيا للتخلص من مبادئ الإسلام فى الحكم، وهى تلك المبادئ التى لا تساعد على أن تكون السلطة للتسلط، ولا على أن يكون الحكم لجاه الحكم.. كما هو شأن اليهود ومن على شاكلتهم..

تلك المبادئ التى أدناها العدل، وأرفعها الإحسان.. والعدل إذا كان توازنا فى المبادلة

والمعاملة وإحقاق الحق لكل صاحب حق، فالإحسان هو إعطاء من إحسانية المحسن، ممثلا فى عمل خير إنسانى أو فى مال أو فى معاونة للفقير، أكثر من الأخذ منه.

تلك المبادئ التى تجعل الحرية أمرا مكتسبا للفرد، لا توهب من أحد سواه، وإنما تنزع عن طريق العبادة لله سبحانه وتعالى من هوى النفس وشهواتها، واكتسابها هو جهاد.. لأن هذه الحرية لو تحققت لدى الأفراد فى المجتمع كانت هى سبيل النصر فى ميدان القتال، فى كل مرة يواجه فيها الأحرار من المؤمنين عدو الله وعدوهم.. ولكن النصر فى ميدان القتال مرة لا يكفل حرية المجتمع الدائمة التى تتجلى فى قوته وفى تماسكه، وفى بقائه معتزا بشخصيته التى تميزه عن غيره، وتجعله مستقلا غير تابع إلا للحق.

والقومية التى يحاول بعض مدعى التفكير الاجتماعى من الأجانب ـ من أمثال ساطع الحصرى، وجورج حبش، وميشيل عفلق ومن على شاكلتهم ـ أن يجعلها كل منهم بديلا عن الإسلام فى الترابط، إن هى إلا وعاء لا يحتوى إلا الحقد على الإسلام، بعد جهل بمبادئه، وفى الوقت نفسه بعد وعى بآثاره الإيجابية فى تجميع الأمة وفى نهضتها بعد استقلالها السياسى.

إن القومية التى يعنيها ساطع الحصرى ومن على شاكلته ـ وما أكثرهم ـ قومية ألفاظ، وقومية تاريخ لا يصور أحداث أمة كانت لها رسالة وقيم عليا، وعاشت من أجل هذه الرسالة والقيم، وتريد أن تعيش لها فى أجيالها المستقبلة، فهى قومية جسم لا روح فيه.

وقومية جورج حبش، وميشيل عفلق، ومن على شاكلتهما ـ وما أكثر هؤلاء ـ قومية إلحاد بدين الله، وقومية استيراد لفكر متعثر يقوم على الدعوة لتنمية الحقد فى النفوس، ويضع الغدر والحقد فى ضروب العلاقات المختلفة أساس السلوك، كما يضع الأفراد فى الأمة فى متاهات الخصومات ودوّامة النزاع وسوء العلاقات.

وهى قومية تحيل مجتمع القوم المطمئن الآمن على نفسه وعلى رزقه، إلى مجتمع يكفر بنعم الله، فيقع فى اضطراب الجوع والخوف، ويشق عليه أمر الحياة .. وهذه سنة لا تتغير فى المجتمعات:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (١).

والتعبير القرآنى يجسم الجوع والخوف فيجعله لباسا، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس

---

(١) النحل: ١١٢.

ذوقا، لأن الذوق أعمق أثرا فى الحس من مساس اللباس للجلد.. وتتداخل فى التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله فى النفوس، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التى تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون.. ولكن من وراء ذلك دعاة تلك القومية الماجنة، حتى لا تتوحد الأمة الإسلامية على العقيدة الصحيحة.. خوفا من أن ترجع لنا سيرتنا الأولى. وإنها لآتية، فإن بشائرها قائمة.. وإن نصر الله قريب.. ولتعلمن نبأه بعد حين.

وهى قومية ـ كما يقول أبو الحسن الندوى ـ(١) كان لها أعمق تأثير فى حياة الأمة العربية وعواطفها ومشاعرها بعدالحرب العالمية الأولى، فقد قويت هذه العصبية على حساب العصبية الإسلامية، وأصبحت ديانة وعقيدة يتغنى بها القوميون، ويتحمسون لها كما يتحمس أهل الديانات والملل، لدياناتهم وشرائعهم، ويرون فيها عوضا وخلفا عن الدين الإسلامى الذى أكرمهم الله بالإيمان به والانتصار له، والتفانى فى سبيله.

يتمثل ذلك بعض التمثيل ـ فى عبارات التقطناها على عجل من كتابات بعض كبار كتاب العرب، وهى تقدم أسلوب الفكر الحديث المسيطر على دعاة القومية العربية:

«العروبة نفسها دين عندنا نحن «القوميين العرب» المؤمنين العريقين من مسلمين ومسحيين، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية فى هذه الحياة الدنيا، مع دعوتها ـ أى العروبة ـ إلى أسمى ما فى الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات»(٢).

«لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة، إن القومية العربية لهى نبوة هذا العصر فى مجتمعنا العربى.

ورسالة هذه النبوة هى : تجميع القوة، وتكتيل الجبهة، والانطلاقة بالبشرية فى كيان المجتمع العربى نحو كسب الحياة .

وإن كتاب العرب فى أعناقهم أمانة، هى أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة، يزكونها بأقلامهم، وينفخون فيها من أرواحهم، ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء والازدهار»(٣).

«الوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله فى

---

(١) المسلمون وقضية فلسطين: ٥٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب: «قضية العرب» لعلي ناصر الدين، هامش ١٣٨ .

(٣) مجلة العالم العربي : عدد ١٧١ بعنوان «النثر والقومية العربية» محمود تيمور.

قلوب قوم مؤمنين» [١].

«القضية العربية لن تكون أبدا عند العربى المؤمن الحر، العاقل الشريف، الصالح الخير، الأبى المترفع، إلا قضية إيمان، إيمان بالوطن للوطن، كقضية الإيمان بالله ليس غير» [٢].

وقد نشأ بذلك عقوق بنعمة الإسلام، وكنود وكفران بحق محمد عليه الصلاة والسلام، وفضله فى تكوين هذا العالم العربى وإبرازه من العدم إلى الوجود، وبدت من أفواه كثير من الشباب المتعلم، وبعض قادة الفكر، وحملة الأقلام، كلمات وكنايات، يرتد بها صاحبها عن الإسلام، ولا يستحق أن يدفن فى مقابر المسلمين.

وصدرت مقالات يبرز فيها أصحابها كعدو حقود على الإسلام.

وبدأ بعض الكتاب يتحدثون عن الإنسان العربى الجديد، كعملاق مارد على جميع الأسس العقائدية، وجميع القيم الخلقية والروحية.

وقد عبر عن هذه الفكرة كاتب جرىء يمثل فى مقال له فى مجلة عسكرية عددا كبيرا من الضباط والقادة والذين يفكرون هذا التفكير. يقول:

«استنجدت أمة العرب بالإله... فتشت عن القيم القديمة .. استعانت بالنظام الإقطاعى والرأسمالى وبعض النظم المعروفة فى العصور الوسطى، كل ذلك لم يجد فتيلا.. مع كل هذا شمرت أمة العرب عن ساعديها ونظرت بعيدا.. بعيدا.. لترى طفلها الوحيد، يقترب منها شيئا فشيئا.. وهذا الوليد ليس إلا الإنسان العربى، الاشتراكى الجديد.

الإنسان المتمرد على جميع القيم.. الإنسان الذى يعلم نهايته الحتمية.. الموت .. وليس غير الموت، لن يكون هناك نعيم أو جحيم، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض.. لذلك وهو مضطر إلى أن يقوم.. دون مقابل كزاوية صغيرة فى الجنة مثلا» [٣].

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [٤].

كانت الآلهة فى الماضى أصناما وأوثانا، أو شجرا أو نجوما، أو ملائكة أو جنا..

---

(١) مجلة العربي: العدد الثاني: ٩ يناير ١٩٥٩.
(٢) مقدمة الطبعة الثانية: ١٩.
(٣) مجلة «جيش الشعب» السورية: إبراهيم خلاص.
(٤) يس: ٧٤ ـ ٧٥.

والوثنية ما تزال حتى اليوم فى بعض بقاع العالم.. وقد يتمثل الشرك اليوم فى الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله، وفى الاعتماد على أسناد أخرى غير الله.. والشرك ألوان، تختلف باختلاف الزمان والمكان والجيل والقبيل... (١) .

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر.. بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدى عليها معتد أو يصيبها بسوء، فكانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ وكان هذا غاية فى سخف التصور والتفكير.

غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل. فالذين يؤلهون الطغاة البغاة العتاة الجبارين اليوم، والذين يرفعون تلك الشعارات التى تجمع الناس على غير الإيمان بالله، هم مفسدون فى الأرض، يريدون لهذه الأمة أن تظل هكذا فى هزائم متلاحقة، حتى يُقضى عليها، ولكن أنَّى لهم ذلك؟ أنى لهم ذلك ؟ وإن كانوا طغاة بُغاة عتاة؟ أنى لهم ذلك وإن كانوا دعاة شر وحماة باطل ! يساندهم حزب الشيطان ويشد من أزرهم؟ أنى لهم ذلك ؟ وهذه بشائرالنصر تلوح فى الأفق، نبصرها فى الصحوة الإسلامية المباركة التى امتدت إلى أطفال الحجارة والنساء والشيوخ وهم يواجهون طغيان اليهود؟

حقا، إن الوثنية هى الوثنية فى شتى صورها وأشكالها..وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أى اضطراب جاءت الوثنية، وكان الشرك، وكانت الجاهلية وكانت الهزائم !

فكيف إذا كان بعض هؤلاء القوميين غير مسلم اسما ومسمى؟! وكيف إذا كان مسلما اسما ويعتنق ما يتنافى مع الإسلام من مذاهب تعددت أسماؤها وتنوعت أشكالها وهدفها واحد؟!

إنه لا عصمة إلا بالتوحيد الخالص الذى يفرد الله وحده بالإلوهية.. ويفرده وحده بالعبادة.. ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد... ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم.. ويومئذ يكون النصر على اليهود ومن على شاكلتهم.

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥ : ٢٩٧٦ بتصرف.

إن هذا الدين القيم لا يعرف الفصل بين دين ودولة.. إنما يعرف الحياة الإنسانية الراقية الشاملة الكاملة للفرد وفى علاقته بغيره..

ولا يعرف قضية للدين وأخرى للعلم.. وإنما يعرف مؤمنا بالله يحكى صفاته فى نفسه من علم وغنى وخلق وإبداع.. ويتقرب بما يحاكيه إليه جل جلاله..

ولا يعرف رفعا لإنسان عن مستواه الإنسانى، وإنما يعرف إنسانا يصيب ويخطىء فى تقديره وفى رأيه وفى علمه..

ولا يعرف تفرقة بين الناس على أساس من العنصر والعرق ـ كما هو شأن اليهود ومن على شاكلتهم .. وإنما يعرف أن الناس جميعا سواء فى الاعتبار البشرى وفى المسئولية أمام الله، وأن التفاضل بينهم هو فى مدى تحقيق مستوى الإنسانية فى تفكير المؤمن وسلوكه وعمله.. هو ـ كما أسلفنا ـ فى التقوى والعمل الصالح..

ولا يعرف توكلا على السعى والعمل.. وإنما يعرف متوكلا ومعتمدا على الله سبحانه، بعد العزم وتحقيق الطريق الذى يسلكه فى سعيه وفى عمله..

ولا يعرف إنسانا ماديا أنانيا يطغى بماديته وأنانيته ـ كما هو شأن اليهودى ومن على شاكلته ـ .. وإنما يعرف إنسانا محسنا.. يعطى من إنسانيته على الأقل بقدر ما يأخذ، إن لم يكن يعطى أكثر..

ولا يعرف إنسانا راهبا أو مترهبا ـ كما هو شأن بعض أهل الكتاب ـ .. وإنما يعرف إنسانا يستمتع بمتع الحياة وبزينتها فى غير غلو وفى غير ترف يجر إلى العبث والفساد.. الذى هو من خلق يهود ومن على شاكلتهم!

ولايعرف مالا منفعته خاصة ـ كما هو شأن اليهود ـ وإنما يعرف أن المال إذاكانت ملكيته خاصة فوظيفته اجتماعية ومنفعته عامة:

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١) .

ولا يعرف واليا يطلب الولاية فيولّى.. وإنما يعرف الولاية بيعة واختيارا ممن يملك حق

(١) النحل : ٧١.

الاختيار فى الأمة.

ولا يعرف عصيانا لوال يولّى إلا فى معصية مؤكدة لله ولرسوله..

أى شىء قبل هذا أو بعد هذا يصلح أن يكون بديلا عنه فى حياة الإنسان وفى شئون أفراده؟

كتاب الله موجود بأيدى المسلمين.. وليس لهم أن يشْكُوا من ضعف أو هزيمة إلا أنفسهم..

التقدم العلمى:

وما دمنا قد عرفنا أن المواجهة بيننا وبين اليهود ضرورة حتمية.. وأن علينا أن نواجههم بالقوة التى تردعهم.. فإن قوانين العلم لا تتغير ولا تكتشف، [1] ولا يستفاد منها بحسب الأمنيات وهوى العاجزين.. إنها تخضع لضوابط عقلية، وبحوث جادة، وعمل متواصل.. إن الطبيعة لا يمكن أن تسخر فى الجانب الاختيارى للعمل فى الحياة بالنسبة للإنسان ولا يستفاد منها إلا تحت القوانين الموضوعة من قبل مَن السموات والأرض جميعا قبضته، لا من قبل الأوهام الفكرية، والخيالات الفكرية،والخيالات الجاهلية التى تفسر السنن بأساطيرها الموهومة.

إن الأسلوب الذى ساد التفكيرالإسلامى فى عصور الانحطاط هو أسلوب يفسر الظواهر بالوهم والخرافة والأسطورة.. ومن ثم كان الوجود اليهودى وكانت تلك الهزائم.. إنه يقف من الأشياء موقف الدهشة والتسليم بالغموض والسطحية فى التفسير.. إنه أبعد ما يكون حتى عن التفكير الرياضى.. ومثل هذا التفكير منطقة حرام على الفهم، والأسلوب التقليدى الذى ساد هو الاكتفاء بأنها من الله، أما الكيفية فى صنع الله، وبحث السنن والاستفادة منها، فأفكارهم أبعد ما تكون عنها، قد ران على عقولهم ضباب كثيف من الخرافة والوهم والأسطورة، لا تكاد تخترق جدرانه السميكة ومضات نور قط!

إن نتائج العلم بطبيعة السنن، وكيفية تسخيرها، يمكن استخدامها فى الخير، ويمكن استخدامها فى الشر.. وإن هذا العلم ليس وحده بعاصم للإنسان عن الضلال، وإنما هو إذا استخدم فى أى مجال أثمر ثمرته المنطقية أيا كانت تلك الثمرة: خبيثة أم طيبة، ولكنه

(١) على مشارف القرن الخامس عشر الهجري: ١١٣ وما بعدها بتصرف.

حينما يتجه به إلى تفهم آيات الله فى الوجود بصفتها يدل بوضوح على الكمال الأسمى والأعظم لخالق مبدع، فهذه النتيجة تسوق الإنسان إلى الإيمان...

إن التقدم العلمى والتكنولوجى لا يغنى عن الإسلام.. ولا يكون مصدر خير للإنسانية بحال.. فهو يساعد على التطور المادى وتوفير الإمكانات المادية للبشرية.. ولكنه لا يحول دون أن يحتكر فريق من الناس هذه الإمكانات ويحرم منها فريقا آخر.. كما نرى ونشاهد تدفق الأسلحة والإمدادات والخبرات على اليهود وحدهم بحجج واهية، والحيلولة دون مساعدة الدول الإسلامية المجاورة لليهود فى هذا المجال.. لا يحول دون أن توجه هذه الإمكانات المادية للإضرار بالمسلمين فى الأرض المحتلة وغيرها.. لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانات مصدر تهديد ونذير سوء.. لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانات سببا لتربص بعض الناس ببعض ولغدر بعضهم ببعض .. وإن حال المسلمين اليوم خير شاهد على ذلك.. لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانات عاملا للفساد والعبث والتحلل من القيم الإنسانية العليا.. وهذا ما يحرص عليه اليهود ومن على شاكلتهم أشد الحرص - كما عرفنا - فإذا أضيف إلى الدولة العصرية التى ترفع راية الإسلام العلم والتكنولوجيا، أصبحت هذه الإمكانات المادية التى يوفرها التقدم العلمى والتكنولوجى فى خدمةالإنسانية.. فى خدمة الخير العام والنفع العام.. فى خدمة القيم العليا للمجتمع الإنسانى العالمى .. وليست فى خدمة العنصرية التى يرفع رايتها اليهود ومن على شاكلتهم:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (١).

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (٢).

وحينما يتجه العقل والعلم معا إلى آيات الله المنزلة فى كتاب، والمبينة فى سماوات وأرض وأكوان، يجد وحدة المصدر فى كتاب الكون المفتوح والكتاب المنزل سواء..

ولكن الأمة التى شل قواها الفكرية الانحراف فى الحكم أولا.. والصراع حول صلاحية العقل والفكر وتخليصهما من قيود الأوهام غير العقلية وغير العلمية ثانيا.. قد

---

(١) البقرة: ١٠٩.　　(٢) المائدة: ٨٢.

جعلا الأمة تائهة فى مستنقع التخلف، وتثبيت الأفكار الميتة الخاوية من نور العقل واعتماد الجدل العقيم القائم على غير هدى ولا كتاب منير ـ كما نرى ونشاهد فى مجتمعاتنا الإسلامية وبخاصة الذين يتصدرون المواجهة مع اليهود ـ مما أسرع بالأمة، نحو انحراف فى البيئة، فلا تقويم للعمل، ولا صدق، ولا سلامة، ولا نظافة فى السلوك ـ إلا من رحم مما أدى إلى تفككها وخروجها من دائرة الحضارة الإسلامية إلى دائرة التخلف..

فى القرآن والمسألة العلمية :

وقد كتب الدكتور عماد الدين خليل تحت هذا العنوان «فى القرآن والمسألة العلمية» يقول:[1] .

هل ثمة دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم «الحديد».. وهو من أهم الخامات وأخطرها؟

الذى يقرأ كتاب الله بتمعن فى محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من العلم، يجد نفسه أمام حشد من الآيات ممتدة وفق أبعاد ثلاثة، توازى المسألة العلمية فى اتجاهها كافة.

يتناول أولها مسائل تتعلق بحقيقة العلم ونظرية المعرفة.

ويعرض ثانيها لمجموعة من السنن والقوانين العلمية فى مجالات العلم المختلفة، وبخاصة الطبيعة، والجغرافيا، وعلوم الحياة، فيما يسمى بالعلوم المحضة أو الصرفة.

ويدعو ثالثها لاستخدام هذه السنن والقوانين، التى كشف عنها منهج تجريبى فى البحث، من أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم، فيما يعرف بالعلوم التطبيقية «التقنية».

وما من شك فى أن هناك ارتباطا وثيقا ومحكما بين هذه الأبعاد، يقود أحدها إلى الآخر، فالمنهج يطرح طريقة عمل للكشف عن الحقائق: السنن والنواميس التى تحكم الكون والعالم، وتحمى صيرورتها الزمنية ذات النظام المعجز..

وهذه السنن والنواميس تمنح الإنسان ـ بدورها ـ «المعادلات» التى يتمكن بها من أن

---

(١) على مشارف القرن الخامس عشر الهجري : ١١٩ بتصرف، نقلا عن مجلة العربي : العدد ٢٤١ المحرم ١٣٩٩هـ ديسمبر ١٩٧٨م.

يدخل إلى صميم هذا التركيب المعجز لبنية الكون والعالم، من أجل اعتماد تلك السنن والنواميس، لتنفيذ قدر من «التطبيقات» العلمية، تمضى بالحياة البشرية قدما صوب الأحسن والأرقى.. وتتيح للإنسان أن يتحرر من شد الضرورات، لكى يكون أكثر قدرة على رفع رأسه إلى فوق ومحاورة السماء، وتلبية حاجاته الروحية التى يتميز بها الإنسان عن سائر الخلائق..

أترانا كأمة نعيش هذا الواقع.. حتى ينصرنا الله على اليهود؟

معطيات القرآن :

صحيح أن كتاب الله ما جاء لكى يكون كتابا علميا كما هو معروف تماما، كما أنه ما جاء لكى يكون أى من حقول المعرفة المتنوعة.. وصحيح أن إلحاح بعض المفكرين المعاصرين على تحميل آيات الله معانى وتفاسير علمية لم تقصد إليها ألبتة، قد دفع بعضهم الآخر، وبرد فعل يتميز بالإلحاح نفسه، على نفى أن تكون للقرآن أية صلة بأيما حقيقة علمية.

فإن الفعل الخاطئ ــ كما هو معروف ــ يولد رد فعل خاطئا يساويه فى القوة ويخالفه فى الاتجاه.. إن هذا التضاد المتطرف يجب ألا يضيع علينا الرؤية الصحيحة لموقف القرآن فى المسألة العلمية.. وهو موقف واضح ومؤكد من أية زاوية نظرنا.

إن القرآن يظل فى حالة حضور دائم فى قلب العالم والكون، يعايش سننهما ونواميسهما ويحدثنا عنهما، وإنه لأمر بدهى أن تتعانق معطيات العلم وتتوازيا، لا أن تتضادا أو تقوم بينهما الحواجز والجدران.. ذلك أن مصدر العطاء واحد.. وهو الله جل وعلا، صانع السنن والنواميس ومنزل القرآن.. خالق الكون والعالم وباعث الإنسان.. ليس هذا فحسب، بل إن الإنسان باعتباره معنيا بصنع السنن ونزول القرآن.. الإنسان بما أنه خليفة فى هذا العالم، ويده المريدة التى تسعى لإعماره وترقيته، كما تؤكد النظرية القرآنية، يقود بالضرورة إلى هذا اللقاء الأكيد بين كتاب الله وسننه فى العالم.. إذ كيف يستطيع الإنسان أن يؤدى دوره فى العالم فى إطار تعاليم القرآن وشرائعه، إن لم يتحرك ــ ابتداء ــ لفهم هذا العالم والكشف عن سننه ونواميسه؟ إن لم يتحرك بكل الإمكانات العلمية والعملية لمواجهة اليهود؟

التناغم بين الثنائيات :

إن مفهوم الحركة فى الإسلام، على خلاف عدد من المذاهب والأديان، ينبثق ـ أساسا ـ عن هذا التناغم والتلاحم بين الثنائيات: الروح والمادة.. الطبيعة وما وراء الطبيعة.. الأرض والسماء.. العلم والإيمان.. المخلوق والخالق...

وإن افتقاد أى طرف من أطراف هذه المعادلة المنطقية سوف يقود إلى الفوضى والضياع.. كما هو حالنا الذى يندى له الجبين فى مواجهتنا مع اليهود!

وها هنا بصدد الحديث عن الموقف من العلم، يبدو أكيدا ذلك التناغم والتلاحم بين كتاب الله وحقائق العلم ومعطياته..

ولكن إذا كانت آيات الكتاب تتضمن حقائق ومسلمات مطلقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، بينما تظل معطيات العلم أسيرة نسبيتها وتغيرها وقلقها وتحولها، فكيف يلتقى المطلق بالنسبى، والكلى بالجزئى، والشامل بالمحدود؟ وهل يصح أن نفسر بعض آيات القرآن على ضوء نظرية أو كشف علمى قد يتعرضان فى أية لحظة للتشكيك والنقض؟

ألا يقود هذا إلى نوع من التشكيك والتناقض، يمتد إلى صميم المعطيات القرآنية نفسها؟

والجواب يقتضينا الرجوع إلى القرآن نفسه.. إلى الأبعاد الثلاثة السابقة..

منهج عمل شامل :

ففى البعد الأول، يطرح القرآن الكريم منهج عمل فى الكشف عن سنن العالم والحياة ونواميس الكون.. وهو منهج متساهل مرن، لا يخضع لتقلبات الزمان والمكان، ومن ثم فإنه يعلو على المتغيرات النسبية، ويظل سارى المفعول فى أى عصر وفى أية بيئة.

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق النظر الحسى إلى ما حولهم ، ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون.. وأعطى للحواس مسئوليتها الخطيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم فى مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة.. والتجريب.. قال له:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (١) .

فهل آن لهؤلاء الذين يحملون أسماء مسلمين، ويعتنقون مذاهب إلحادية، ويتصدرون الركب السياسي فى بعض البلاد الإسلامية، وبخاصة ما يتعلق بقضيتنا مع اليهود، أن يتبصروا حقيقة أمرهم وأنهم مسئولون بين يدى الله؟!

وهل آن لكل مسلم غيور أن يدرك خطورة تصدر أولئك الذين هم معاول فناء وبوار ودمار.. حتى تتطهر الساحة من هؤلاء المفسدين، وينصرنا الله على اليهود؟!

وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله.. إلى طعامه.. إلى خلقه.. إلى الملكوت.. إلى التاريخ وحركة الإنسان فى العالم.. إلى خلائق الله.. إلى آياته المنبئة فى كل مكان.. إلى النواميس الاجتماعية.. إلى الطبيعة وهى تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدرته.. إلى الأثمار وهى تتدلى من غصون الأشجار.. إلى الحياة الأولى كيف بدأت، وكيف نمت وارتقت.. مما يطول الحديث فيه..

ودعاه أن يحرك سمعه باتجاه الأصوات، لكى يعرف ويميز، فيأخذ أو يرفض.. فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

وفى نفس السورة نقرأ:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وسبق أن عرفنا أن لفظ الدواب وإن كان يشمل كل ما دب على الأرض، فيشمل الأناسى فيما يشمل، إلا أنه يلقى ظلا خاصا حين يطلق على الآدميين.. ظل البهيمة.. ثم يصبح هؤلاء الآدميون شر البهيمة التى تدب على الأرض!

---

(١) الإسراء: ٣٦. (٢) الأنفال: ٢٠ ـ ٢٣ . (٣) الأنفال : ٥٥.

وسبق أن عرفنا ـــ كذلك ـ أنه قد وردت روايات فى هؤلاء الذين كفروا أنهم يهود بنى قريظة، أو يهود بنى النضير.. وغيرهم ممن على شاكلتهم!

وعرفنا ـ أيضا ـ أن من سمات اليهود التى سجلها القرآن الكريم:

﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ (١).

وانتقل القرآن الكريم خطوة أخرى وسأل الناس أن يحركوا بصائرهم، تلك التى تستقبل فى كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية لا حصر لها، ومن ثم تتحمل البصيرة مسئوليتها فى تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من الوصول إلى الحق الذى تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة:

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ (٢).

إن العقل والحواس جميعا مسئولة، لا تنفرد إحداها عن الأخريات فى تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار.. فأين دورنا تجاه قضيتنا مع اليهود؟!

وإن الإنسان مبتلى بهذه المسئولية، لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام:

﴿ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (٣).

ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد مرة تلو مرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعا هى التى تعطى للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها باستغلال قدراته الفذة حتى النهاية، سيصل قمة انتصاره العلمى والدينى على السواء، لأن هذه الانتصارات ستبوؤه مركزه المسئول كخليفة فى الأرض، وأنه بتجميد هذه الطاقات وقفل نوافذها، وسحب الستار عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا.. منزلة البهائم والأنعام:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (٤).

فهل آن للمسلمين أن يتحركوا بكل إمكاناتهم العلمية والعملية للعمل الذى تفرضه ضرورة المواجهة التى لا مفر منها مع اليهود؟!

---

(١) البقرة: ٩٣. (٢) الأنعام: ١٠٤.
(٣) الإنسان: ٢. (٤) محمد: ٢٣.

وفى القرآن الكريم آيات تبلغ ما يقارب الخمسين، تحث على تحريك العقل، المفتاح الذى منحه الله بنى آدم، ليفتحوا به أبواب الملكوت، ويدخلوا ساحة الإيمان بالله الذى يسخر لهم ما فى السماوات وما فى الأرض :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وآيات أخرى دعت الإنسان إلى التفكير العميق المتبصر، المسئول بكل ما يحيط به من علامات وأحداث وأشياء وموجودات:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

فهل فكر المسلمون فى هذا الواقع الأليم تجاه قضيتنا مع اليهود ؟!

وما يقال عن التفكر يمكن أن يقال عن التفقه، وهو خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، إذ هى الحصيلة التى تنتج عن عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعيا بما يحيط به، وأعمق إدراكا لأبعاد وجوده وعلائقه فى الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوما، مستعدا للحوار إزاء كل ما يعرض له من أسئلة وعلامات:

﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٣) .

وأكد القرآن الأسلوب الذى يعتمد البرهان والحجة والجدل الحسن للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء، والمقارنة والموازنة والتمحيص، استنادا إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها، والقدرات العلمية والمنطقية لأولئك الذين بلغوا شأوا بعيدا فى هذا المضمار:

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٤) .

العلم هو الدين :

هكذا يبوء العلم، بمفهومه الواضح، الشامل فاعلية فى غاية الأهمية، فى المجتمعات التى ترتضى الدين، أو المنهج الإلهى، طريقة لها فى الحياة.. ولابد أن نضيف هنا حقيقة أخرى فى غاية الأهمية، تلك هى أن كلمة العلم وردت فى القرآن الكريم مرارا

---

(١) البقرة: ٢٤٢. (٢) الأنعام : ٥٠.

(٣) النساء: ٧٨. (٤) البقرة : ١١١.

كمصطلح على الدين نفسه، الذى علمه الله أنبياءه.. على النواميس التى يسير الله بها ملكوته العظيم.. على الحقائق الكبرى فى أم الكتاب، وكإشارة إلى القيم الدينية التى نزلت من السماء، فى مقابلة الأوهام والظنون البشرية.. ومن ثم يغدو العلم والدين سواء فى لغة القرآن.. إن كلمات الحق تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة الممتدة المتداخلة، كما أراد لها أن تكون، لا كما يريد لها الوضعيون من عملاء اليهود ومن على شاكلتهم، الذين يسعون جهدهم للفصل بين الكلمتين:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١).

ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات فى هذا المقام، أو حتى الإشارة إليه، ويكفى أن نشير إلى أن كلمة علم بتصريفاتها المختلفة وردت فى عدد من الآيات جاوز خمسين وسبعمائة (٢).

فأين دور أهل الذكر فى العلوم العسكرية فى بلادنا الإسلامية فى هذا المقام، حتى نستطيع أن نواجه اليهود بالعلم والمعرفة والإعداد المتفوق الذى يعيد الأرض المحتلة لأصحابها ويحفظ كرامة هذه الأمة؟!

دعوة لتطوير الحياة:

ونتجاوز البعد الثانى لحظات، لكى ننظر إلى البعد الثالث، فإذا به دعوة ملحة فى أكثر من موضع من كتاب الله إلى اعتماد حقائق العلم وكشوفاته، لتطوير الحياة وترقيتها، بمزيد من التطبيقات «التقنية» على كافة المستويات. وهو أيضا مرن، يتميز بالشمولية والديمومة، إذ هو دعوة للإفادة من الحقائق العلمية الراهنة فى مدى كل عصر، لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات المدنية لذلك العصر، فإذا ما حدث أن تغيرت الحقائق العلمية، وتبدلت العلاقات المدنية، كان بمقدور النداء القرآنى أن يمضى لكى يخاطب الجيل أن يتحرك ويحدث تطبيقات أخرى على مستوى الحقائق الجديدة، ومن خلال العلاقات المتغيرة..

---

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ: الفصل الثالث.

ألم يدعُنا القرآن الكريم ــ كما أسلفنا ـ إلى أن نعد لأعدائنا القوة التى نرهبهم بها، ونحمى بالتالى وجودنا ودورنا فى الأرض؟

ألم تأت هذه الدعوة متضمنة هذا الموقف المرن الشمولى، الممتد عبر الزمان والمكان، والذى يلتقى فيه الراهن بالشامل، والموقوف بالدائم:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١).

وسبق أن عشنا فى رحاب هذه الآية بما يجعلنا فى غنى عن إعادة ما تضمنته من معالم فى طريق النصر..

وفى سورة الحديد ألم يؤكد اعتماد هذا الخام الخطير فى ميادين السلم والحرب، دون ما تحديد ملزم لطرائق الاعتماد وصيغه؟

هل ثمة أكثر دلالة ؟ :

سورة الحديد؟

هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها؟

هل ثمة أكثر إقناعا لنزعة التحضر والإبداع والبناء، التى جاء الإسلام لكى يجعلها جزءا أساسيا من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته فى صميم العالم.. من هذه الآية فى سورة الحديد ؟ :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢).

الآية التى تعرض ـ فوق ما سبق أن عرفنا ـ خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة فى طرفيها اللذين يتمخضان دوما عن الحديد:

---

(١) الأنفال: ٦٠.   (٢) الحديد : ٢٥.

«البأس الشديد» تمثلا باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكرى.

«والمنافع» التى يمكن أن يحظى بها الإنسان فى هذه المادة الخام فى كافة مجالات نشاطه وبنائه السلمى.

وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن، فى مسائل السلم والحرب، وأنه غدا فى عصرنا الراهن هذا، وسيلة من أهم الوسائل فى ميادين القوى الدولية سلما وحربا؟

إن الدولة المعاصرة التى تملك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها، بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل.. وتستطيع أيضا أن تخطو خطوات واسعة، لكى تقف فى مصاف الدول الصناعية العظمى، التى يشكل الحديد العمود الفقرى لتقدمها..

ولابد أن نلفت النظر ـ هنا فوق ما سبق ـ إلى هذا التداخل العميق، والارتباط الدقيق، فى آية الحديد، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين الحديد الذى يحمل فى طياته البأس، ثم التأكيد من أن هذا كله إنما يجىء للمنافع السابقة:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

إن هذا الموقف المتشعب المتداخل يقودنا ثانية إلى أن الإسلام جاء لكى يشد الإنسان إلى أعماق الأرض، ويدفعه إلى التنقيب فيها، من أجل إعمارها وحمايتها..

وأن المسلم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة، يده المتوضئة، التى تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر..

وأنه بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا، الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بحركة الجهاد الدائمة، ويختار بدلا من ذلك، مواقع الفرار والاتكال، والانتظار السائب لمعونة الحق.. فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته، وسيهزم لا محالة، مادام قد أشاح عن الموقف القرآنى الذى يكاد يصرخ بأعلى نبرة أنه ـ بدون الاعتماد الواعى المسئول الذكى الخبير على مصادر القوة والبأس ـ لن يكون هناك نصر ولا تقدم ولا حماية للموازين والقيم العادلة..حتى لو حبس المؤمنون ـ أنفسهم فى المساجد، السنين الطوال، يبكون ويتضرعون!

وهكذا حيثما تلفتنا، عبر هذا البعد الثالث من معالجة القرآن للمسألة العلمية، وجدناه

يتخذ دعوة دائمة، لاتحدها حدود، ولا تأسرها متغيرات ولا نسبيات، لدفع الجماعة المؤمنة إلى صياغة مزيد من التطبيقات المبنية على حقائق العلم وكشوفاته ومعادلاته.

موقفان :

ونرجع إلى البعد الثانى، حيث يطرح القرآن حشدا من الحقائق والسنن والنواميس فى مجالات العلم المختلفة، وبخاصة الطبيعية والجغرافية وعلوم الحياة فى عدد واسع من المقاطع والآيات ، لا يتسع المجال لتحليلها واستعراضها.. ها هنا يلجأ بعض المفكرين أو المفسرين المعاصرين إلى اعتماد أحد الموقفين اللذين سبق أن أشرنا إليهما:

الموقف الأول يتكىء كلية على معطيات العلم الحديث لتفسير آيات القرآن الكريم، والوقوع بالتالى فى خطأ منهجى يقوم على تحكيم الجزئى بالكلى، والمتغير بالدائم، والنسبى بالمطلق.. فإذا ما حدث أن تبدلت الجزئيات والمتغيرات والنسبيات العلمية ـ وهذا شأنها كما يؤكد العلماء أنفسهم ـ أدى ذلك إلى إحداث شرخ أو قلق ذهنى إزاء تلك الآيات التى فسرت وفق مقولات لم يُتح لها الدوام.

والموقف الثانى يرفض كلية الاعتماد على معطيات العلم الحديث، تحسبا من مصير كهذا.

الموقف الوسط :

والمنهج الأقرب إلى الصواب هو أن نتخذ موقفا وسطا، كما علمنا كتاب الله نفسه أن نتخذ فى كافة مسافات الحياة، فلا هو بالالتصاق الكامل بمعطيات العلم المتغيرة، ولا هو بالرفض الكامل للتفسير بها.

إن المفسر المعاصر يجب أن يعمل عقله ، وقدراته فى مجال تخصصه إذا توفرت لديه ، لإدراك طبيعة العلاقة بين طرفى المعادلة : الآية القرآنية ، والمقولة العلمية ، مستفيدا ـ من جهة أخرى ـ من الاتجاهات الحديثة التى ظهرت أخيرا فى مجال التفسير القرآنى، تلك الاتجاهات التى تعتمد مفردات القرآن نفسه ومنحنياته البيانية لفهم مضامينه ومعانيه، فيما يعرف بالتفسير البيانى للقرآن ، ومن شأنه أن يمنح المفسر ضمانات موضوعية لنشاطه، لتحميه من الإفراط أو التفريط فى محاولة الوصول إلى الدلالات المقصودة للكلمات والتراكيب الجميلة.

ومن خلال هذا التوازن فى القدرة العلمية التخصصية،والقدرة التفسيرية الموضوعية، يمكن للمفسر أن يتحرك لكشف من الدلالات المقصودة للآيات العلمية لكتاب الله.

معطيات العلم ليست سواء :

هناك من الحقائق العلمية ما أصبح بمثابة قوانين نهائية، بل بداهات مسلما بها، لاتقبل نقضا ولا تغيرا، من مثل الدور الذى تلعبه الرياح ـ على سبيل المثال ـ فى عملية الأمطار، ومن مثل الدور الذى تلعبه الجاذبية فى حركة المجموعة الشمسية، ومن مثل المراحل التى يمر بها الجنين فى الرحم، وتغير نسب المكونات الغازية قربا أو بعدا عن الكرة الأرضية.. وغير هذه الحقائق أمور كثيرة ما كان العربى يوم نزل القرآن يلم بأبعادها العلمية،ومن ثم فإن تفسير الآيات القرآنية التى تناولت هذه الحقائق وأكدت عليها، كما أنه سيتكىء على بداهات علمية بالنسبة للقرون الأخيرة، فإنه سيكتشف فى الوقت نفسه جوانب الإعجاز العديدة التى تضمنها القرآن وأشار إليها.

وهنالك من الحقائق العلمية ما يحتمل أكثر من وجه، ولكن هذه الوجوه جميعا إنما تدور فى إطار واسع مرن، ليس ثمة مانع أن نحيل عليه آيات قرآنية أخرى لإدراك دلالاتها، من مثل الآيات التى تؤكد النظام الذى يمسك بناء السماوات المعجز أن يتفكك ويتبعثر ويضيع.

أما النظريات التى لا تزال موضع أخذ ورد، والتى لم تتبلور بعد، كحقائق وقوانين وبداهات مسلم بها، فإن بمقدور المفسر أن يكون حذرا إزاءها، وألا يتكىء عليها إلا بمقدار ما يتيح له ذلك تسليط الضوء على جانب من جوانب المضمون الذى تحتويه الآية.

ليست سواء.. معطيات العلم التى تتمخض باستمرار.. ومن ثم فإن التعامل معها يجب أن يحاذر عن مظنة الارتباط الكامل أو الانفصال الكامل.

إن الارتباط الكامل سيمنع القدرة على الفهم والإدراك من التحرك بشتى الاتجاهات.

وإن الانفصال الكامل سيضعف هذه القدرة، ويقيم أسلاكاً شائكة بين جانب من معطيات القرآن وبين الإنسان المعاصر.

ورطة الإنسان المعاصر:

والإنسان المعاصر ــ اليوم فى أمس الحاجة إلى يقين دينى، يعيد إليه وحدته الضائعة، وسعادته المفقودة، وأمنه المسلوب ـــ وهذا هو حال الأمة المسلمة فى واقعها المعاصر

وبخاصة تجاه اليهود ـ وما دامت القناعة المبنية على الحقائق العلمية هى اليوم أكثر القناعات فاعلية للتحقق بهذا اليقين.. وما دام كتاب الله يمنحنا هذا القدر الكبير المعجز من هذه الحقائق التى راحت تتكشف عقدا بعد عقد وقرنا بعد قرن... فلماذا لا نتحرك على ضوء هذه المعادلة العلمية لإنقاذ أنفسنا من تلك الورطة التى نعيش أحداثها مع اليهود؟ وهنا نكون أمة يرنو إليها الإنسان المعاصر من ورطته بفقدان اليقين.. وترجع إلينا سيرتنا الأولى.. وتهب نفحات الجنة.. وينصرنا الله على اليهود..

نظامان للغلبة والانتصار :

ولعله قد آن لنا أن نخطو إلى الأمام.. إلى النصر على اليهود.. فإن هناك نظامين: نظاما طبيعيا فى الأشياء يبصره كل من يرى، لا يفارقها على مر القرون والأعصار.. وهو أن القوة تغلب الضعف، وأن التنظيم والوحدة، والانسجام والعزم، والجد والحزم، وقوة الإرادة والصرامة والثبات، صفات تغلب دائما أضدادها، وكل عاقل قد جرب هذا النظام فى حياته اليومية..

وهذا النظام الطبيعى ـ كما يقول أبو الحسن الندوى ـ (1) قانون عادل محايد، لا يراعى أحدا، ولا يفضل بشرا على بشر، ولا جماعة على جماعة، حتى إن هذا القانون لا يميز بين الكافر والمؤمن ولابين التقى والفاجر،ولا بين الصالح والفاسد، ولا بين المسلم واليهودى، فالنار تحرق كل ما امتدت إليه، لا تراعى مصلحة، ولا تخاف عاقبه.

هذا هو الميزان العادل المحايد، الذى يزن الأشياء وزنا دقيقا، ولا يداهن ولايحابى، ولا يفرق ولا يميز.

هذا هو القانون الذى جربه الإنسان فى رحلته الطويلة، وفى تجاربه المتصلة منذ خلق إلى يوم الناس هذا، وتاريخ الفتوح الإنسانية، والمغامرات البشرية، وتاريخ الانتصارات والحكومات زاخر بالشواهد والأمثلة، إنه تاريخ متصل متكرر، طويل مستمر، لا يوجد فيه الاستثناء.

ولا يحتاج هذا القانون إلى بحث عميق، أو استعراض دقيق، ولا إلى تعمق، ولا إلى فلسفة، لأنه معلوم مجرب، معقول بمتناول كل إنسان.

وهو قانون قاهر نافذ، حر مطلق.. قانون الأرض.. وإذا ترك الناس وهذا القانون

(1) المسلمون وقضية فلسطين: ١٢٤ وما بعدها بتصرف.

تحكم فيهم تحكما مطلقا، ولم يعق سيره شيء.

ولكن هنالك نظاما آخر، وهو أن الحق تبارك وتعالى قد خلق غايات أفضل وأسمى، وأحق بالاهتمام والاحترام، يجد الناس فيه طريقا ميسورا للوصول إلى الحق، ولتنمية قواهم ومواهبهم لمعرفته،والوصول إلى الكمال المطلوب، والغاية السامية التي خلق هذا الكون لأجلها.. وهنا نبصر الغايات التي يجب أن تخضع لها الغايات الطبيعية، وأن تغير لها هذه الغايات طريقها، وتترك الطريق للغايات السامية التي أنزل الله لها الكتب وأرسل الرسل..

فإذا تصادمت الغايتان: الغاية الطبيعة، والغاية الشرعية، الخلقية العقلية الدينية، الأساسية الرئيسة.. غاية الخلق، وغاية هذا الكون، وغاية النوع البشرى، رجحت كفة الغاية الشرعية.. لذلك لما ألقى إبراهيم فى النار، كانت هناك سنة الله الذى نفذت فى خلقه، وسارت السير الطبيعى، وانطلقت من غير تقييد، فكانت النار تحرق منذ آلاف السنين، ما سجلت تجربة واحدة فى التاريخ البشرى.. أن النار قد كفت وأضربت عن أداء واجبها احتراما لملك أو عالم، لأنها مأمورة، ولكن لما اصطدمت الغاية الطبيعية: طبيعة النار، مع طبيعة الخلق التى خلق الله لأجلها الكون، بما فيه النار والماء، وبما فيه الأجرام الفلكية والظواهر الكونية، والأشياء الأرضية، وجميع المواد.. لما اصطدمت طبيعة النار مع طبيعة الهداية ــ الغاية التى خلق الله لأجلها الكون ــ أُمرت النار بالكف عن الإحراق، وسُلبت من النار طبيعتها.. طبيعتها العريقة فى القدم، وقيل لها ــ بحيث سمعت ــ ولم يسمع نمرود، ولا أحد من الخلق: إياك إياك أن تحرقى إبراهيم، إننى أنا الذى أودعت فيك طبيعة الإحراق، ولكن الغاية التى خلقْتُ لأجلها إبراهيم، وأكرمته بالرسالة، وبعثته إلى هذا الخلق، وأمرته بتبليغ هذه الرسالة، هى الغاية التى يجب أن تخضع لها طبيعتك ألف مرة، فإياك أن تمسى ثياب إبراهيم، فضلا عن قلبه المؤمن السليم، التى برأه الله لأمانة النبوة، وهيأه لها، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [1].

فخضعت ودانت وانقهرت، وتواضعت هذه الطبيعة النارية للطبيعة الدينية، للطبيعة التى هى الغاية، التى لولاها لكان هذا الكون عبثا، ولكان هذا الكون لفظا بلا معنى، فدانت النار وأطاعت أمر الله تعالى، وتوقفت عن إحراق إبراهيم، وكانت عليه بردا وسلاما:

---

(١) الأنبياء: ٥١.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ (١) .

فكانت بردا وسلاما على إبراهيم.. كيف؟ (٢) ولماذا نسأل عن هذه وحدها؟ لماذا و «كونى» هذه هى الكلمة التى تكون بها أكوان، وتنشأ بها عوالم، وتخلق بها نواميس:

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٣) .

فلا نسأل: كيف لم تحرق النار إبراهيم والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية؟ فالذى قال للنار: كونى حارقة. هو الذى قال لها: كونى بردا وسلاما. وهى الكلمة التى تنشىء مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول، مألوفا للبشر أو غير مألوف.

إن الذين يقيسون أعمال الحق إلى أعمال البشر هم الذين يسألون: كيف كان هذا؟ وكيف أمكن أن يكون؟ فأما الذين يدركون اختلاف الطبيعتين، واختلاف الأداتين، فإنهم لا يسألون أصلا، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلا.. علميا أو غير علمى.. فالمسألة ليست فى هذا الميدان أصلا.. ليست فى ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر.. وكل منهج فى تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه، لأن أعمال الحق غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود.

إن علينا فقط أن نؤمن بأن هذا قد كان، لأن صانعه يملك أن يكون.. أما كيف صنع بالنار فإذا هى برد وسلام؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار؟.. فذلك ما سكت عنه النص القرآنى، لأنه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود. وليس لنا سوى النص القرآنى من دليل.

وما كان تحويل النار بردا وسلاما على إبراهيم ـ رغم أنه معجزة ـ إلا مثلا تقع صور شتى قريبة منه، وإن لم تأخذ صفة الإعجاز كما هو معلوم ـ ولكنها قد لا تهز المشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر .. لأنه معجزة .. فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات، من شأنها أن تكون القاصمة القاضية،وإن هى إلا لفتة صغيرة،فإذا هى تحيى ولا تميت، وتنعش ولا تخمد،وتعود بالخير وهى الشر المستطير.

إن ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لتتكرر فى حياة الأشخاص والجماعات والأمم، وفى حياة الأفكار والعقائد والدعوات.. وإن هى إلا رمز للكلمة التى

---

(١) الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠. (٢) فى ظلال القرآن: ٤: ٢٣٨٧ بتصرف. (٣) يس: ٨٢.

تبطل كل قول، وتحبط كل كيد، لأنها الكلمة العليا التي لا ترد!

﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾

وسبق أن عرضنا لكثير من الآيات والأحاديث فى مثل هذا المقام..

وفى الطريق إلى فتح المدائن، يذكر التاريخ أن دجلة كانت تزبد، وكانت فى المد، وكان الفرس قد كسروا الجسور والقناطر، وأبعدوا السفن والقوارب، ووقف سعد على شاطئ دجلة وقفة قصيرة، واستعرض الواقع الحاضر.. استعرض الواقع الاستراتيجى.. وقال لأصحابه: بماذا تشيرون علىّ؟ هل نرجع أو نقتحم دجلة؟ [1].

كان المسلمون واثقين بأن الله سبحانه وتعالى قد خلقهم لغاية، وأنه جل شأنه قد ربط مصير الإنسانية بهم، وأنه عز وجل رؤوف بالإنسانية، وأنه تبارك وتعالى لم يخلق العالم عبثا..

كان المسلمون واثقين بهذا.. فعرفوا أنهم هؤلاء الذين يمثلون الإسلام، وهؤلاء الذين يحملون القبس الإسلامى، ومشعل الدعوة إلى الله.. وأن هذه الجماعة نواة الأمة الوحيدة التى أخرجت للناس،وبذورها الطيبة، أما دجلة فهو نهر يوجد مثله آلاف من الأنهار، فكيف يسمح لدجلة بأن يفرق هذا الجيش الإسلامى الذى ليس له غرض مادى؟ هذا الجيش الإسلامى الذى لم يخرج من جزيرة العرب ليبدل عرشا بعرش، وحكما بحكم، وملكا بملوك، لينتزع السيادة من الفرس ويقدمها إلى العرب، وليأخذ التاج من رأس كسرى ويضعه على رأس عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه.. هذا حرام على المسلمين.. فهم قد خرجوا كما قال قائلهم: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فلما استعرض سعد الوضع الاستراتيجى فى فتح المدائن،وعرف وأيقن أنه لا حيلة له إلا الاعتماد على الله، وأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن يبقى هذا الجيش الإسلامى يؤدى رسالته، وينشر دينه، وأنه يدعو الخلق إلى عبادة الله وحده، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، فإن الله سبحانه سيأمر دجلة على أن تفتح لهم الطريق..

---

(١) المسلمون وقضية فلسطين: ١٣٥ وما بعدها بتصرف.

استشار سعد سلمان رضى الله عنهما فقال: «إن الإسلام جديد» كلمة طيبة تعجبنى، وتثير فى قلبى وقلب كل مؤمن، وفى تفكيرى وتفكير كل مؤمن، معانى وأحاسيس عميقة جدا.

يتجلى فى هذا الجواب ذكاء المؤمن، لا أقول: الذكاء العام، فإن ذكاء المؤمن قد مثل خير تمثيل بهذه الكلمة التى نطق بها سلمان رضى الله عنه: «إن الإسلام جديد» لقد ذللت لهم البحر، كما ذلَّل لهم البر.. فهى تعنى أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يظهر هذا الدين القيم على الدين كله، وأن الإسلام لم يؤد مهمته بعد.. أمامه مجال واسع.. أمامه أمم وشعوب بكر.. أمامه بلاد شاسعه واسعة.. أمامه دنيا عريضة.. فإن هذا العالم كله.. فى الشرق والغرب.. فى الشمال والجنوب.. ينتظر دعوة الإسلام.. ينتظر تلك الأخلاق الفاضلة التى يتحلى بها المسلمون.. ينتظر الجيش الإسلامى ..جيش الإنقاذ، فقال: إن عقلى المؤمن لا يصدق أنا سنغرق، وأن دجلة ستلتهمنا.. إن الله سبحانه وتعالى يقهرها ويأمرها بأن تفتح لنا الطريق.. وهكذا كان.. فهم قد جمعوا بين الأسباب والتوكل..

هذان نظامان ..

نظام طبيعى.. يمثل غلبة القوة على الضعف..غلبة الوحدة على التشتت والفوضى.. غلبة الاختراع والعلم على الجهل والكسل..

ونظام الإيمان والعقيدة، والصفات والأخلاق، والدعوة والرسالة.. وهذا هو السلاح الذى قاتل به المسلمون، فانتصروا به.. هذا السلاح الذى خرجوا به من جزيرة العرب، ثيابهم مرقعة،ونعالهم مخصوفة، وجفانهم بالية،وخيلهم متقطعة الركاب.. ومع ذلك كانوا القادة والفاتحين والمنتصرين..

هذان نظامان.. ولكن إذا تجرد فرد أو جماعة من هذين النظامين.. حيث لاجد ولا عزم ولا إرادة.. لا وحدة ولا انسجام ولا عزيمة.. ولا خضوع للنظام الشرعى والخلقى.. فلا نصر.. كما هو واقعنا الأليم..

ولقد ابتدأ العالم الإسلامى يقظته فى الوقت الذى بدأت اليابان نهضتها تقريبا، [1] وفى خلال نصف قرن تقريبا كانت اليابان قد دخلت أسرة القوى الكبرى، لقد أنشأت

(١) على مشارف القرن الخامس عشر الهجري : ١٣٥ بتصرف.

جميع الشروط العلمية المتفقة مع سنن بقاء الحضارة، لتحقيق تلك الغاية، بينما حمل منهجنا للنهضة بمختلف صوره التقليدية والخاطئة والمزيفة كل عوائق الإحباط عن التقدم خطوة واحدة فى سبيل إنشاء شروط حضارة..

وهكذا لم تصل هذه النهضة إلى غايتها،على مدى أكثر من مائة عام، فهى قد اتجهت إلى ما أطلق عليه «مالك بن بنى»: «الشيئية» أى تكديس الأشياء، بدلا من الاتجاه نحو فكرة مركزية خلاقة مبدعة، تشكل مجتمعها وتسير به نحو خلق شروط حضارته ذاتها . وندرك مع « مالك بن نبى» ضمن حد معين الصلة القائمة بين إدارة وقدرة مجتمع ينى ذلك على قاعدة حضارة، وليس على قاعدة منتجاتها، وهذا ما يفسر لنا كيف أن اليابان قد نجحت، حيث لم يحقق العالم الإسلامى نصرا حاسما على التخلف، لأن نشاطه قد طبق فى عالم الأشياء والمنتجات، بدل أن يطبق ضمن النسق البشرى ونسق الأفكار، ونعنى بالأفكار تلك التى تقوم على أسس من العقل والفهم والعلم.. والمرتبطة بالعمل الموصول إلى الغايات.. فالمسألة لا تتمثل فى إعادة تلقين المسلم عقيدته وكفى، ولكنها تتمثل ـ أيضا ـ فى إعادة تلقينه فعاليتها فى الحياة،وأنها غير عائق له عن صنع حضارة خاصة به، بل هى دافعة له إليها، وضرورة حتمية بالنسبة لظروفه التاريخية والنفسية والمصيرية..

إزالة أسباب الخزلان :

ولا نعرف قضية مثل قضية فلسطين [١] .. كتب فيها من الكتب الكثير.. وعقد لها من الحفلات والمؤتمرات، واتخذ لها من المشروعات والقرارات، ونظم لها من المواكب والمظاهرات.. ما لا يحصى ولا يعد.. فقد ظلت الشغل الشاغل، بعد ما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وأعلن مشروع وطن اليهود، فكانت مقدمة كل خطبة ووعظ، وتكأة كل خطيب ومتحدث، وسند كل زعيم وقائد، فى كسب الرأى العام، والسيطرة على عقول الشباب والجماهير..

وضربت الرقم القياسى فى كثرة الحروف التى كتبت على الورق، وعدد الكلمات التى انطلقت إلى الفضاء ، وهى قضية فى منتهى العدل، وأقرب القضايا فى العالم المعاصر إلى الفهم والعقل.. ثم لم يغن ذلك شيئاً.

واستطاعت إسرائيل ــ هذه النقطة المغمورة ببحار من المسلمين ـ أن توسع الأرض

---

(١) المسلمون وقضية فلسطين : ١٦٠ وما بعدها بتصرف .

المغتصبة إلى حدود لم تكن تخطر بالبال قبل اليوم المسجل فى التاريخ ٥ يونيو ٦٧ وتمتلك القدس الشريف، والمسجد الأقصى المبارك الذى حرمته منذ آلاف السنين، وكان حظها من هذه الأساليب التى تمسك بها القوميون والمتحدثون من هؤلاء وأولئك.. والثروة التى أنفقوها جميعا من الكلام، أو من المؤتمرات والحفلات ، أو من البيانات والإعلانات قليلاً، إلى حد يدعو إلى الدهشة والاستغراب!

وظلت معركة الكلام حامية طول هذه المدة، ولم تقم محاولة جدية، ولا برزت دعوة صريحة قوية إلى تغيير منهج الحياة إلى ما يرضى الله.. رغم أن هذه البلاد قد اكتوت بنار هذه الجناية الكبرى التى لا مثيل لها فى التاريخ الحديث، وتعرضت للخطر الصهيونى بطريق مباشر.. ولم تظهر دعوة إلى إزالة أسباب السخط والخذلان التى بينها القرآن فى أسلوبه البليغ السافر، وكسب أسباب النصر الحقيقية التى دعا إليها الكتاب والسنة، والتى عرضنا لها من قبل.. والتى حفل بنتائجها وأمثلتها التاريخ الإسلامى، ولم يشعر أحد بحاجة إلى استفتاء القرآن والعقل الإيمانى الواعى المنصف، الذى لا يكذب ولا يخدع، عن أسباب هذه النكبة وحدوث هذه المشكلة التى حار فى تعليلها العقلاء، وعجز عن حلها الزعماء، وردها إلى أخطاء ارتكبتها الشعوب العربية، منذ ثورتها على الدولة العثمانية الإسلامية، وانضوائها إلى الحلفاء الآثمين المعتدين، والقتال بجوارهم، ولم يلتفت أحد إلى محاربة الأدواء الخلقية التى تسبب الوهن، وهو حب الدنيا وكراهية الموت..

ومن ثم كانت الرقة والنعومة، وكان الإخلاد إلى الراحة.. بل على العكس من ذلك، لم يزل يجد ويستفحل من الدعوات والهتافات، والشعارات والفلسفات، ما يُبعد عن الدين، ويُغضب الله، ويقطع صلة الأمة بوعد الله بالنصر.. ويحول بينها وبين ذلك، من دعوات جاهلية، وأسماء مخترعة، والاعتماد على هؤلاء الذين لا يزنون عند الله جناح بعوضة.

واكتفت بعض الدول التى تزعمت هذه القضية، ووعدت بالنصر والفتح المبين، بالغوغائية والسلبية، والدعاية الفارغة، والجهاد فى غير عدو، واستنفاذ أكبر قدر من الأصوات، وعدد من الحروف والكلمات التى زخرت بها اللغة العربية العبقرية، واستخدام أقوى الحناجر لكسب المعركة، حتى جاءت الساعة التى لا ينفع فيها إلا الجد والإقدام، والمغامرة والبطولة، والتقشف والتضحية، فانهزم المعسكر الهازل أمام المعسكر الجاد، وانحسر فيضان الكلام أمام جيش لا يعرف إلا الإفساد فى الأرض، وكان ما كان، مما

نكس الرؤوس.. وأذل رقاب دعاة القومية فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكان من المؤكد المضمون، والبديهى المعقول، ومما يوافق طبيعة هذه الأمة، ويتفق مع تاريخها الطويل، أن العقلاء سيعتبرون بهذا الدرس القاسى، الذى لا درس بعده، وأنه سيتغير تيار الحياة فى هذه البلاد، وأنها ستستأنف حياة جديدة تختلف عن الأولى كل الاختلاف.. فيحل الإيمان مكان الارتياب والاضطراب، والإسلام الحقيقى مكان النفاق والرياء، والشعارات البراقة الخادعة، والهتافات العنصرية، والفلسفات الماجنة.. ويحل التقشف والخشونة مكان الرقة والنعومة، والأخذ بالجد مكان التمسك بالقشور والمظاهر، وأنهم سيبدلون أسباب الترفيه والتسلية بأسباب الفداء والتضحية، وأن الشعوب ستعيش فى ظل الاستعداد والحذر، وفى حالة طوارئ وأن محاولات جدية لمحاربة أسباب الفشل والضعف، والاتجاه إلى التمتع الرخيص، والتهام اللذة الفارغة، ستظهر.. فالعار لا يغسله إلا الثأر، والجروح لا تضمدها إلا الفتوح.

إننا أمام الأمر الواقع المرير، وسيف الخطر مصلت على رقابنا، وقد تمثلت لنا كلمة الفاتح الإسلامى طارق بن زياد من جديد.

«أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر».

وقد مضى زمن الكلام، ووقت القرارات والبيانات، والحفلات والمؤتمرات، وأصبحت لا قيمة لها ولا تأثير، حتى من الناحية الدبلوماسية، فقد أصبحت الأساليب المعهودة فى معالجتنا للقضية حتى اليوم عقيمة لا يحفل بها أحد..

لقد أصبح الغرب الذى لا يزال أستاذا فى الدبلوماسية، قليل الاحتفال بهذه الأساليب القديمة التقليدية، التى لا تزال الحكومات الشرقية تعتمد عليها كل الاعتماد،وتؤمل فيها كل خير، وصار ينظر إليها كمسرحيات قديمة كانت تمثل فى الدور البدائى، ثم تقدم العالم تقدما كبيرا.

إن طارقا قال لجيشه:

«وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم»

ولسان الحقيقة يقول لنا:

لا وزر لكم أيها المسلمون إلا الإخلاص لله فى كل شيء.. وفى حل هذه القضية.. الإخلاص الذى يعيد إلينا سيرتنا الأولى...

إن مثل بلادنا الإسلامية ـ وخصوصا البلاد التى اكتوت بنار النكبة الأخيرة وعارها ـ كمثل بيت وقع فيه حريق عظيم، فإنه لا يحتاج إلا إلى المطافىء القوية السريعة، وتتمثل هذه المطافىء فى محاربة أسباب الفساد، وتنفيذ الإصلاح العام الشامل، أو الانطلاق بإخلاص وعزم فى هذا الاتجاه.

وإن أول خطوة إيجابية مباركة: الندامة والاعتراف بالخطأ، والإقرار بالإخفاق الذى منينا به، وبأننا أخطأنا الطريق.

والخطوة الثانية: إزالة أسباب الخذلان، التى تحرم من النصر الإلهى، والعزة والكرامة فى الدنيا، والانتصار فى المعركة، نتتبعها تتبعا أمينا دقيقا، ونحكم على أنفسنا بالعدل، ونتوب إلى الله توبة نصوحا، ونؤمن إيمانا صادقا بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

والخطوة الثالثة: أن نحارب الفساد فى كل مجال من مجالات الحياة، ونزيل النفاق ـ ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ـ من كل شعبة من شعبها.. ونترك محاربة الحق.. وإعلان الحرب على الإسلام ـ من الدعوات والفلسفات إلى الأعمال والأخلاق ـ وندخل فى السلم كافة، ونحث على الجد والغيرة الإسلامية، والزهد والبساطة.

نبوءة صادقة:

عرفنا كيف نجحت اليهودية العالمية فى زعزعة كيان الأمم الكبرى، بعد أن مارست سيطرتها الفعلية على مقدرات هذه الأمم من النواحى السياسية والفكرية والمادية والأخلاقية والإعلامية.. حتى تخلقت شعوب هذه الأمم بأخلاق اليهود المبنية على الغدر والجشع، والأنانية والطمع، والوحشية والغرور.. ومن ثم بدأت السياسة العامة تبنى خططها فى الحياة، على أسس عدائية للحق وأهله، رسمها الخلق الصهيونى الشاذ، ونفذها أساطين المكر والدهاء والغدر.. وكان واقعنا الأليم فى فلسطين....

ولكن كيف ارتضت هذه الملايين من المسلمين الذل والهوان، ودينها دين الإباء والكرامة؟

لقد أجاب الرسول ﷺ على ذلك قبل أربعة عشر قرنا حينما قال فيما يرويه أحمد

وأبو داود بسند جيد رجاله ثقات عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » .

فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال :

« بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » .

فقال قائل: يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال :

« حب الدنيا وكراهية الموت »[1].

وصدق رسول ﷺ، فقد مرت على أمته أزمنة استمرأت فيها حياة الذل والعبودية، حين تخلت عن أخلاق الإسلام، [2] تلك الأخلاق التى جعلت من الحفاة العراة فى صدر الإسلام قوة عظمى تدك صرح أعظم إمبراطوريتين فى التاريخ: الفرس والروم.. وتنشر رسالة العدل والخير والنور فى أرجاء الدنيا.. وحين تخلوا عن دينهم مروا بأدوار ضعف وانحطاط كثيرة، كان آخرها الدور الذى بدأ فى سنة ١٨٣٠م يوم احتلت فرنسا الجزائر على مرآى ومسمع من المسلمين.. واستمر هذا الضعف وذلك الانحطاط ـ كما عرفنا ـ إلى سنة ١٩٤٨م يوم ضاعت فلسطين على مرآى ومسمع من المسلمين كذلك.. وفى ذلك الدور من الانحطاط تهيأت نفوس المسلمين لتقبل الاستعمار، وما يجره من ذل وهوان، فاحتل الجنوب اليمنى «عدن» ومحميات الجنوب العربى، والخليج العربى، وتونس سنة ١٨٨١م ومصر والسودان سنة ١٨٨٢م وليبيا سنة ١٩١١م والمغرب سنة ١٩١٢م والعراق وسوريا والأردن وفلسطين سنة ١٩١٨م .

ما أشبه الليلة بالبارحة :

وتشاء الأقدار أن تكون فلسطين هى آخر معقل يسقط بأيدى اليهودية العالمية .. وأن تكون فى الوقت نفسه كبش فداء تبدأ مع سقوطها مرحلة تنبه الوعى والتطور إلى ما هو أفضل، لأن كارثة فلسطين قد نبهت المسلمين ـ لا شك ـ إلى حقيقة واقعهم المر ، وغفلتهم وتخاذلهم وضعفهم، بعد أن وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام خطر مدمر، لا يقل

---

(١) أبو داود (٤٢٧٦) عون المعبود، واللفظ له وأحمد: ٥: ٢٧٨.

(٢) خطر اليهودية : ٣٩٥ وما بعدها بتصرف.

عن الخطر الوحشى الذى تعرضوا له أيام الحروب الصليبية، والخطر الهمجى الذى تعرضوا له أيام التتار...

وتشاء الأقدار ـ كذلك ـ أن توضع الأمة الإسلامية أمام مسئولية تاريخية خطيرة، لا تقل عن مسئوليتها يوم تصدت للحروب الصليبية وغزو التتار.. وستظل حطين وعين جالوت من المعالم البارزة فى هذا المقام..

وما أشبه الليلة بالبارحة، فالأمة الإسلامية ـ فى مجموعها ـ بدأت تفيق من غفوتها، وتصحو من غفلتها، وبدأت المؤتمرات الإسلامية تدرس جوانب مهمة من واقع الأمة، وبدأ الشباب فى العودة إلى الله.. وأحس كثيرون من أهل الفكر والرأى بالأخطار الجسيمة التى تتهدد الأمة الإسلامية من جراء السرطان اليهودى الذى أخذ ينشب أظفاره، ويستشرى فى ديار المسلمين.

نبوءة النصر :

وتطالعنا نبوءة النصر فيما يرويه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« لا تقوم الساعة، حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودى: يا مسلم! هذا يهودى ورائى فاقتله » (١)

وفى رواية لهما عن عبد الله بن عُمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« تقاتلكم اليهود، فتسلطون عليهم، حتى يقول الحجر: يا مسلم ! هذا يهودى ورائى فاقتله » (٢).

قال الشنقيطى:(٣) لا وجه لتقييد شروح البخارى هذا النصر للمسلمين على اليهود، بكونه فى زمان قتال اليهود مع الدجال للمسلمين، ومعهم عيسى بعد نزوله عليه السلام، إذ لا مانع من وقوع ذلك النصر مرتين، فينصرون عليهم قبل نزول عيسى عليه السلام،

---

(١) البخاري: ٥٦ ـ الجهاد (٢٩٢٦) ومسلم: ٥٢ ـ الفتن ٨٢ (٢٩٢٢).

(٣) البخاري : ٦١ ـ المناقب (٣٥٩٣) ومسلم : ٥٢ ـ الفتن ٨١ (ت ٢٩٢١) .

(٩٣ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم :٥: ٢٤٤ بتصرف.

ويستمر ذلك النصر عليهم إلى نزول عيسى، «حتى يقول الحجر وراءه اليهودى: يا مسلم! هذا يهودى ورائى فاقتله» .

والتعبير بحتى فى الحديث يدل على أن هذا النصر لا يزال من حين قتالنا لليهود، حتى يقول الحجر ذلك القول ، سواء كان قبل عيسى عليه السلام أو فى زمنه، والعقل قابل لكل ذلك، والإيمان بكل ما أخبر به رسولنا ﷺ واجب، وهو فى حديث الصحيحين هذا لم يقيد بما بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وحينئذ فهو شامل لما قبل نزوله وما بعده، حيث أراد الله ذلك إن شاء الله.

وأخرج أحمد بسند صحيح عن سالم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :

« ينزل الدجال فى هذه السبخة ، بمرّ قناة ، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى إن الرجل ليرجع إلى حميمه ، وإلى أمه،وابنته ، وأخته ،وعمته ، فيوثقها رباطا، مخافة أن تخرج إليه ، ثم يسلط الله المسلمين عليه ، فيقتلونه ويقتلون شيعته ، حتى إن اليهودى ليختبىء تحت الشجرة أو الحجر ، فيقول الحجر أو الشجرة للمسلم : هذا يهودى تحتى ، فاقتله » (١)

وذكر بعض الأحاديث فى قصة خروج الدجال، ونزول عيسى،وأن وراء الدجال سبعون ألف يهودى.. وأن عيسى يدركه عند باب له فيقتله وينهزم اليهود، فلا يبقى شىء مما يتوارى به يهودى إلا أنطق الله ذلك الشىء فقال: يا عبد الله ! للمسلم، هذا يهودى فتعالى فاقتله، إلا الغرقد فإنها من شجرهم.(٢).

فهذه الأحاديث التى فيها التصريح بانتصار المسلمين على اليهود بعد نزول عيسى، لعلها هى التى حملت شروح البخارى على تقييد انتصار المسلمين على اليهود الواضح بكونه فى زمان نزول عيسى عليه السلام، مع أنه لا مانع من حصول هذا النصر قبل نزول عيسى وبعد نزوله.

---

(١) المسند : ٧: ١٩٠ (٥٣٥٣) تحقيق أحمد شاكر، وقال: إسناده صحيح، والحديث في مجمع الزوائد: ٧: ٣٤٦ ـ ٣٤٧ وقال : في الصحيح بعضه، رواه أحمد والطبراني في الأوسط، وفيه ابن إسحاق .

(٢) انظر: ابن ماجه (٤٠٧٧) من حديث أبي أمامة، ونحوه عند أحمد: ٥: ١٦ من حديث سمرة بإسناد حسن، وفى مجمع الزوائد : ٧: ٣٤١ ـ ٣٤٢ أحمد والبزار ببعضه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ثعلبة بن عباد وثقه ابن حبان، وأخرجه ابن منده فى كتاب الإيمان من حديث حذيفة بإسناد صحيح. فتح البارى : ٦: ٦١٠.

وذكر لفظ مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » (١).

قال: وفى هذا الحديث ظهور الآيات قبل قرب قيام الساعة، من كلام الجماد من شجر وحجر، وظاهره أن ذلك ينطق حقيقة، ولا مانع، ويحتمل المجاز بأن يكون المراد أنهم لا يفيدهم الاختباء وراء الشجر والحجر، والحمل على الحقيقة أولى. (٢).

قال ابن حجر: وفيه أن الإسلام يبقى إلى يوم القيامة (٣).

معركة عقيدة :

وعلينا أن نخوض المعركة ـ وفق الإعدادات العسكرية التى أشرنا إليها ـ على أساس أنها معركة عقيدة، ذلك لأن فلسطين ـ كما عرفنا ـ بلد إسلامى مقدس، يضم المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.. وأن النصر لا يكون إلا عن هذا الطريق..

وقد استطاع اليهود بباطلهم المستند على كتبهم المزيفة أن يقنعوا الغرب بارتباطهم الروحى بفلسطين، ومن ثم خاضوا المعركة منذ عشرات السنين على هذا الأساس، وخاضوها سنة ١٩٤٨م على ذلك أيضا.. جاء فى مذكرة «وايزمان»:

لقد قابلت لورد «بلفور» وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور: لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا؟ وقلت لبلفور: « إن الصهيونية حركة سياسية قومية، هذا صحيح، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن إغفاله، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحى فإننا لن نستطيع تحقيق الحكم السياسى القومى» (٤).

هكذا يستغل اليهود الجانب الروحى،وما زالوا كذلك، فقد كان فى مقدمة حرب ١٩٦٧م حبر من أحبارهم يقود دبابة، ويحمل الكتب المقدسة عندهم، بينما أسقط المسلمون من حسابهم العامل الدينى، والرباط الروحى، وخاضوا المعركة على غير ذلك من الشعارات القومية، فكانت الهزائم التى نعيش أحداثها المريرة.

(١) مسلم: ٥٢ ـ الفتن ٨٢ (٢٩٢٢).
(٢) زاد المسلم: ٥: ٢٤٥ بتصرف.
(٣) فتح البارى: ٦: ٦١٠.
(٤) انظر المرجع السابق: ٤٠١.

وفلسطين مهوى أفئدة المسلمين جميعا، وواجب الدفاع عنها حق على كل مسلم... ومن ثم يجب أن ندع الشعارات التى أودت بنا إلى الحضيض.

ومعلوم أن الأحزاب والحركات العربية العلمانية الملحدة قد أخفقت فى جميع أعمالها، لأنها كانت منذ نشأتها وما تزال، تعمل بمعزل عن الشعوب المؤمنة.. كما أنها عجزت عن إدراك الاختلاف الكبير بين الإسلام الذى هو دين ودنيا، وبين الكهانة التى أرغمت حكومات الغرب ومن على شاكلتها على اعتناق العلمانية.. هذا جانب، وهناك جانب آخر مهم ، وهو أنها تعرف أن الإسلام دين ودولة، ولكنها تحارب هذا الدين بتلك الشعارات البراقة والمبادئ الهدامة.. وعلى كل فسرعان ما انهار بنيانها، حتى غدت موضع سخرية العقلاء من الأمة الإسلامية.

وهذه الأحزاب والحركات العلمانية التى تنتشر اليوم فى هذه الأمة من المحيط إلى الخليج، قد تخرجت فى مدارس الغزو الثقافى التى استطاعت أن تفصل بين ضحاياها وبين أصولهم العريقة.. وجاءت دساتير تلك الأحزاب والحركات خالية من أية إشارة إلى الجانب الروحى فى حياة هذه الأمة، وما انطوى عليه ذلك الجانب من قوة كامنة، وفى الوقت ذاته جاءت مليئة بكل ما يصد المسلمين عن دين الله، حتى أصبح آلاف الشباب ممن استهوتهم تلك الأحزاب والحركات يعيشون فى متناقضات عجيبة، ألسنة حداد، وقلوب فارغة..! ومن ثم رأينا الكثيرين منهم يخرجون على تلك المبادىء الهدامة، ويعودون إلى الله...

وسبق أن ذكرنا الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة على أن النصر للمؤمنين.. وضربنا لذلك الأمثلة الكثيرة...

وحدة القيادة :

وعلينا أن نوحد القيادة حتى ينصرنا الله على اليهود... ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بعودة المسلمين إلى دينهم، والقضاء على موجة الإلحاد التى تعم أغلب الشباب فى كثير من البلاد، والقضاء نهائيا على الأحزاب والحركات العلمانية التى مزقت هذه الأمة، حينما أوجدت صراعا يسمونه بأسماء براقة ويطلقون عليها «عقائدية» فاشتعلت نار البغضاء واستحكم العداء بين الإخوة والأشقاء، وانهدم نظام الوحدة الإسلامية..

ولابد من هذه الوحدة التى تنبثق من وحدة العقيدة فى الله: .

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [1].

وتلك هى الأخوة الإسلامية التى أبصرنا معالمها فى الجيش الإسلامى بقيادة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. الأخوة المعتصمة بحبل الله.. وهى نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى .. [2] ويهبها الله لمن يحبهم من عباده دائما.. وهو هنا يذكرهم هذه النعمة..يذكرهم كيف كانوا فى الجاهلية «أعداء».. وما كان أعدى من الأوس والخزرج فى المدينة أحد. وهما الحيان العربيان يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة، وينفخون فى نارها، حتى تأكل روابط الحيين جميعا.. ومن ثم تجد يهود مجالها الذى لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه. فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام.. وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة.. وما كان إلا حبل الله الذى يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخوانا.. وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة فى الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية، ويتجمع الصف تحت لواء الحق..

وحينئذ نسير فى معركتنا مع اليهود كأسلافنا الذين وحدوا قيادتهم، فكان لهم النصر.. وهنا نذكر موقف خالد حين قدم الشام مددا لجيوش المسلمين التى كانت مشتبكة مع الروم على ضفة اليرموك « يقاتلون الروم متساندين، كل أمير على جيش ، أبو عبيدة على جيش ، ويزيد بن أبى سفيان على جيش، وشرحبيل بن حسنة على جيش، وعمرو بن العاص على جيش، فقال خالد: إن هذا اليوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، فأخلصوا لله جهادكم، وتوجهوا لله تعالى بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، فلا تقاتلوا قوما على نظم وتعبئة، وأنتم على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى، وإن من وراءكم لو يعمل عملكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه هو الرأى من واليكم، قالوا: فما الرأى؟ قال: إن الذى أنتم عليه أشد على المسلمين مما غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم والله ! فهلموا

---

(١) آل عمران:١٠٣.

(٢) فى ظلال القرآن: ١ : ٤٤٢ بتصرف.

فلنتعاورن الإمارة ، فليكن علينا بعضنا اليوم ، وبعضنا غدا ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعونيَ اليوم عليكم . قالوا: نعم، فأمّروه وهم يرون أنها كخرجاتهم «غزواتهم الأولى » فكان الفتح على يد خالد يومئذ» (١) .

وعد الله :

وعلينا أن ندرك أن اليهودية العالمية قد نجحت نجاحا فوق الحساب فى تحقيق مراميها وأهدافها الكثيرة، التى ظلت آلاف السنين تحلم بها، وفى تطبيق مخططاتها الكثيرة التى كانت تعتبر ضربا من غرائب الهوس، وطرائف الجنون فى سهولة ويسر، لم يكن يتخيلهما عاقل..

فقامت دولة إسرائيل.. ولكن هل يدوم هذا الوضع؟ وهل تحقق الصهيونية ما بقى من أحلامهاو مخططاتها؟

إن كل ما سبق أن عرفناه من سمات اليهود يحتم أنهم لا يتمتعون بفترة طويلة من السيطرة والغلبة والقوة، ولا يمكنون من تحقيق جميع آمالهم وأحلامهم، ومخططاتهم الهادمة المدمرة، الأنانية العنصرية، ولو أيدتهم ألف حكومة، وكانت من ورائهم القوى الكبرى كلها فى العالم، ولو توفرت عندهم كل الوسائل المدمرة التى اكتشفها المكتشفون فى هذا العصر، والتى برعوا فيها براعة ممتازة، وسينتصر أهل الحق وحملة الرسالة العالمية الخالدة، التى تعطف على الإنسانية كلها، وتساوى بين الشعوب والأمم، وتنتصر للحق أينما كان، وتحارب الظلم أينما وجد، يعيشون للإنسانية وبالإنسانية، ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢) .

إن حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة، (٣) تستغرق النشاط الإنسانى كله، وتوجه النشاط الإنسانى كله.. فما تكاد تستقر فى القلب حتى تعلن عن

---

(١) خطر اليهودية : ٣٩٧ نقلا عن معجم البلدان: ياقوت : يرموك ، وانظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٤٧٢ .

(٢) النور : ٥٥.

(٣) فى ظلال القرآن : ٤ : ٢٥٢٨ وما بعدها بتصرف.

نفسها فى صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه إلى الله، لا يبتغى به صاحبه إلا وجه الله، وهى طاعة لله واستسلام لأمره فى الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى فى النفس ، ولا شهوة فى القلب، ولا ميل فى الفطرة، إلا وهو تبع لمنهج الله.

فهو الإيمان الذى يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه.. وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه فى أهله ومع الناس جميعا.. يتوجه بهذا كله إلى الله.. يتمثل هذا فى قول الله سبحانه فى الآية نفسها تعليلا للاستخلاف والتمكين والأمن : « يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله.

ذلك الإيمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى فى الأرض.. أمانة الاستخلاف..

فما حقيقة الاستخلاف فى الأرض ؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم .. إنما هى كل هذا على شرط استخدامه فى الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذى رسمه الحق للبشرية كى تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها فى الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله .

إن الاستخلاف فى الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد.. وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة ، لا على الظلم والقهر.. وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشرى، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان !

واليهود ـ كما عرفنا ـ مصدر إفساد وظلم وقهر وانحدار بالإنسانية إلى مدارج الحيوان ! ومن ثم فليسوا أهلا للاستخلاف.. وتلك معالم فى الطريق إلى النصر القريب تضاف إلى ماسبق أن ذكرنا..

وهذا الاستخلاف هو الذى وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وعدهم الله أن يستخلفهم فى الأرض ـ كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ـ ليحققوا النهج الذى أراده الله، ويقرروا العدل الذى أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات فى طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله..

فأما الذين يملكون فيفسدون فى الأرض وينشرون فيها البغى والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان ــ كما هو شأن اليهود ومن على شاكلتهم ــ فهؤلاء ليسوا مستخلفين فى الأرض.. إنما هم مبتلون بما هم فيه ، ومبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم، لحكمة يقدرها الله..

آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده: «وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ».. وتمكين الدين يتم بتمكينه فى القلوب، كما يتم بتمكينه فى تصريف الحياة وتدبيرها.. فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم فى الأرض، وأن يجعل دينهم الذى ارتضى لهم هو الذى يهيمن على الأرض ــ ومنها فلسطين ــ ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض .. ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ، ومن رصيد ومن طاقة ، ومع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله.

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

الخارجون على شرط الله . ووعد الله . وعهد الله .

لقد تحقق وعد الله.. وظل متحققا وواقعا ما دام المسلمون على شرط الله « يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » .. لا من الآلهة وما أكثرها .. ولا من الشهوات وما أكثرها كذلك.. ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة .. إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن ، لتخلف شرط الله ، فى جانب من جوانبه الفسيحة، أو فى تكليف من تكاليفه الضخمة ، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء، وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن، وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف.. كل ذلك بوسائله التى أرادها الله ، وبشروطه التى قررها الله .. تحقق وعد الله الذى لا يتخلف، ولا تقف فى طريقه قوة من قوى الأرض جميعا..

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة، وبألا يحسب الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وأمته حسابا لقوة هؤلاء البغاة الطغاة العتاة من الكافرين ومن على شاكلتهم، من اليهود والذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذى ارتضى لهم:

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١).

فهذه هى العدة.. الاتصال بالله، وتقويم القلب بإقامة الصلاة.. والاستعلاء على الشح ، وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة .. وطاعة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ والرضى بحكمه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (٢).

فالرسول الحبيب المحبوب ﷺ ليس مجرد واعظ يلقى كلمته ويمضى.. (٣) لتذهب فى الهواء ــ بلا سلطان ــ كما يقول المخادعون عن طبيعة هذا الدين .. أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول الدين .. فالدين منهج حياة .. منهج حياة واقعية .. بتشكيلاتها وتنظيماتها، وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها، وعباداتها وشعائرها.. وسلمها وحربها ــ كما عرفنا ــ وهذا كله يقتضى أن يكون للرسالة سلطان .. سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ..

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان .. كان دعوة وبلاغا.. ونظاما وحكما.. وسلما وحربا.. وخلافة بعد ذلك عن رسول الله ﷺ تقوم بقوة الشريعة والنظام ، على تنفيذ الشريعة والنظام .. لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول .. وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول..

ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحد الإسلام .. يقرره الله سبحانه بنفسه. ويقسم عليه بذاته. فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل فى تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام، ولا تأويل لمؤول.

---

(١) النور : ٥٦ : ٥٧ . (٢) النساء : ٦٤ ــ ٦٥. (٣) المرجع السابق : ٢ : ٦٩٥ بتصرف.

اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام.. مماحكة مردودة على أصحابها .. فطاعة الرسول مقررة.. وإن كان قد ظهر فى زماننا هذا بعض القادة الذين لا علم عندهم ــ إن أحسنا الظن بهم ــ وبعض الذين يطلق عليهم من الألقاب الضخمة الفكرية، الذين يتصدرون الركب فى عصر الهزائم مازالوا يقفون من ذلك موقفا يرفضه الإسلام ويرده عليهم، ويصمهم بما هم له أهل ..

إن علينا أن نصحح المفاهيم.. ونحقق نهج الحق الذى أراده الله للحياة.. فإذا استقمنا على النهج فلا علينا من وضع اليهود ومن يساندهم. فما هم بمعجزين فى الأرض، وقوتهم الظاهرة ــ مهما كان شأنها ــ لن تقف لنا فى الطريق، فنحن أقوياء بإيماننا، أقوياء بعدتنا التى نبذل فى سبيلها كل الإمكانات المتاحة .. والقلوب المؤمنة، والأيادى المتوضئة.. والتجمع فى رحاب العقيدة .. والاعتصام بحبل الله .. كل أولئك يصنع الخوارق والأعاجيب .

إن الإسلام حقيقة ضخمة لابد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله فى تلك الآيات.. ولابد أن يبحث عن مصداقها فى تاريخ الحياة البشرية، وهو يدرك شروطها على حقيقتها، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب، أو يستبطئ وقوعها فى حالة من الحالات .

إنه ما من مرة سارت الأمة على نهج الله، وحكمت هذا النهج فى الحياة، وارتضته فى كل أمورها.. إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن..

وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت فى ذيل القافلة، وذلت،وطرد دينها من الهيمنة، واستبدلها الخوف، وتخطفها الأعداء.

ألا إن وعد الله قائم.

ألا وإن شرط الله معروف.

فمن شاء الوعد فليقم بالشرط ومن أوفى بعهده من الله؟

النصر النهائى :

وعلينا أن نؤمن بأن النصر يخضع ــ كما تخضع الهزيمة فيه ــ إلى قانون لا يتخلف .. فإن هناك أيضا قانونا آخر للحياة [1] يمثل إرادة الله كذلك ، وهو قانون النصر النهائى ، وتصوره الآية القرآنية فيما يقو ل الله عز وجل:

---

(١) خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر: ١٠٢ وما بعدها بتصرف.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[1].

فالله هو العلى الكبير، وهو الحق.. وذلك تعليل كاف وضمان كاف للانتصار الحق والعدل، وهزيمة الباطل والبغى.. وهو كذلك ضمان لاضطراد سنن الكون وثباتها، وعدم تخلخلها أو تخلفها.. ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغى.. والله أعلى وأكبر.. فلن يدع البغى يستعلى، والظلم يستطيل.. وما عدا الله هو الباطل، والباطل ضعيف، فلابد أن ينهزم.

والنتيجة الضرورية لهذا القانون، هو أن الذين يقاتلون مخلصين وصادقين فى سبيل الله، لابد أن ينصروا على الآخرين فى قتالهم معهم، وهم الذين قاتلوا فى سبيل الباطل والطاغوت.

وتصرح آية أخرى ـ كما سبق ـ بهذه النتيجة اللازمة فيما تذكره:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[2].

وسبق أن ذكرنا قول عيسى عليه السلام فى اليهود «أنتم من أب هو إبليس».

ومن ثم فهم فى المقدمة لولاية الشيطان.. وضعف الشيطان، وضعف أوليائه هو فى اتباع الهوى والشهوة.. ومن كان كذلك فإن خط سيره فى الحياة يمثل تعرجات شتى تنبئ عن تقلبه فى سبيل اتباع الهوى وتحقيق الشهوة .. والمتقلب ليس له مبدأ يتمسك به، وهو إذا لا يقاتل إلا مكرها، والذى يقاتل مكرها يفر من ميدان القتال، فور أن يجد مخلصا لنفسه، وهو من أجل ذلك ضعيف لا يثبت، ومن لا يثبت تلحقه الهزيمة لا محالة.

وهذا ما تناقلته الأنباء عن الطيارين اليهود الذين شاركوا فى الحروب التى قامت حديثا بيننا وبينهم!

أما الحق فهو ثابت لا يتغير.. وأما الذين يقاتلون فى سبيله فهم يقاتلون عن اختيار،

---

(١) الحج: ٦٢. (٢) النساء: ٧٦.

ويرون القتال قربى إلى الله لا يصرفهم عنه متاع الدنيا ولا شهوة النفس، ولا يسيطر عليهم أثناء القتال هوى الذات. فقد ارتضوا الآخرة بدل الدنيا، وباعوا أنفسهم لله وحده:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[(1)].

إن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين .. الله سبحانه فيها هو المشترى ، [(2)] والمؤمن فيها هو البائع، فهى بيعة مع الله عز وجل، لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه، ولا في ماله يحتجزه دون الله سبحانه، ودون الجهاد في سبيله، لتكون كلمة الله هى العليا، وليكون الدين كله لله. فقد باع المؤمن نفسه، وماله لله في هذه الصفقة، مقابل ثمن محدد معلوم، هو الجنة: وهو ثمن لا تعدله السلعة، ولكنه فضل الله..

وإن هذه الآية تكشف عن حقيقة العلاقة التى تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيعة التى أعطوها ـ بإسلامهم ـ طوال الحياه . فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذى ينطبق عليه وصف المؤمن، وتتمثل فيه حقيقة الإيمان..

حقيقة هذه البيعة ـ أو هذه المبايعة كما سماها الله كرما منه وفضلا وسماحة ـ أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم، فلم يعد لهم منها شيء.. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله.. لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا .. إنه صفقة مشتراة.، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها شيء سوى أن يمضى في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنة.. والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال.. والنهاية: هى النصر أو الاستشهاد..

من بايع على هذا.. من أمضى الصفقة.. من ارتضى الثمن ووفى.. فهو المؤمن.. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا .. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنا ،

---

(1) التوبة : ١١١.

(٣) في ظلال القرآن : ٣ : ١٧١٣ وما بعدها بتصرف.

وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال.. ولكنه جل شأنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا، وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها ــ حتى مع الله ــ وكرمه فقيد بعقوده وعهوده، وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة، ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة.. شر البهيمة:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾(١).

وسبق أن عرفنا أن المقصود بهؤلاء الذين ينقضون العهد هم يهود بني قريظة، أو يهود بني النضير، أو يهود بني قينقاع، ومن على شاكلتهم.

كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء..

وإنها البيعة رهيبة ــ بلا شك ــ ولكنها في عنق كل مؤمن ــ قادر عليها ــ لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه .. ومن هنا تكون تلك الرهبة التي يستشعرها كل مؤمن وهو يقرأ هذه الكلمات :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ ﴾

عونك اللهم! فإن العفو رهيب.. ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين ، على عهد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ، ولم تكن مجرد معان يستقبلونها بأذهانهم ، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم.. كما كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.. لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة.. هكذا أدركها الصحابة..

ويطيب لنا أن نذكر موقفا من تلك المواقف الكثيرة فيما رواه أحمد بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ قال : مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة في المواسم بمنى يقول:

---

(١) الأنفال: ٥٥ ــ ٥٦.

« من يؤوينى ، من ينصرنى ، حتى أبلغ رسالة ربى ، وله الجنة » .

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر، فيأتيه قومه ، فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشى بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا، فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد فى جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلا، حتى قدموا عليه فى الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين ، حتى توافينا، فقلنا : يا رسول الله! نبايعك . قال :

« تبايعونى على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله ، لا تخافون فى الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم،ولكم الجنة » .

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو من أصغرهم فقال: رويدا ياأهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة، فبينوا ذلك فهو عذركم عند الله، قالوا : أمط عنا ياأسعد، فوالله! لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط يعطينا على ذلك الجنة. رضى الله عنهم أجمعين [1].

---

(١) الفتح الرباني: ٢: ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ورواه الحاكم: ٢ : ٦٢٥ ـ ٦٢٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه. ، و أقره الذهبي، وقال ابن كثير في تاريخه: هذا إسناد جيد على شرط مسلم.

لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين، انتهى أمرها، وأمضى عقدها، ولم يعد إلى مرد من سبيل: ! «لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار، والجنة، ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشترى؟ أليس هو الذى وعد بالثمن وعدا قديما فى كتبه:

﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾

﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾

أجل! ومن أوفى بعهده من الله؟

إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن منذ كانت الرسل، ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التى لا تستقيم الحياة بدونها، ولا تصلح الحياة بتركها.

﴿ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله، وأخذ الجنة عوضا، كما وعد الله.. وما الذى فات؟ ما الذى فات المؤمن الذى يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ والله! ما فاته شىء. فالنفس إلى موت والمال إلى فوت.. سواء أنفقهما صاحبهما فى سبيل الله أم فى سبيل سواه! والجنة كسب. كسب بلا مقابل فى حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل فى هذا الطريق أو ذاك!

ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله.. ينتصر ـــ إذا انتصر ـ لإعلاء كلمة الله، وتقرير دينه، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.. ويستشهد ـــ إذا استشهد ـ فى سبيله، ليؤدى لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.. ويستشعر فى كل حركة، وفى كل خطوة، أنه أقوى من قيود الأرض، وأنه أرفع من ثقلة الأرض، والإيمان ينتصر فيه على الألم، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب.. كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التى لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة، وانتصار الإيمان فيه على الألم، وانتصار العقيدة فيه على الحياة .. فإذا أضيفت إلى ذلك كله .. الجنة .. فهو بيع يدعو إلى الاستبشار ، وهو فوز

لا ريب فيه ولا جدال..

والمؤمنون أقوياء بإيمانهم، وثابتون فى القتال من أجل هذا الإيمان.. ولذا يكون النصر النهائى لهم.. وإن هزموا فى موقعة فليتخذوا من الهزيمة فيها قوة فى موقعة أخرى، وليُبعدوا عن أنفسهم عناصر الضعف التى اكتشفوها فى هزيمتهم.. فهل آن لنا أن نتخطى أسباب الهزائم التى نزلت بنا ، ونأخذ بأسباب القوة التى عرفنا معالمها ، حتى ينصرنا الله على اليهود؟

القانون الذى يربط النصر النهائى فى القتال بالإيمان بالحق واتباعه، ويربط الهزيمة النهائية باتباع الباطل وماديات الحياة وحدها، هو قانون طبيعى، تتجلى فيه إرادة الحق، كما تتجلى فى خصائص الطبيعة البشرية التى تحكم الإنسان والمجتمعات الإنسانية..

وفى هذا النصر النهائى كقانون للحياة يقول الله تعالى:

﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(1).

ومنطوق هذا القانون هو:

أولا: أن أعداء الإيمان بالله، وبخاصة الماديون الملحدون منهم، إذا باشروا القتال مع المؤمنين، لابد فى النهاية أن يفرّوا ويولوا الأدبار وليس لهم معين ونصير بعد ذلك.

ثانيا: أن ذلك يتجلى فى أحداث التاريخ الماضية كلها.. وإذن لا شبهة فى التلازم فى الوقوع بين قضاياه:

يوجد الإيمان فيوجد النصر.

ويوجدالإلحاد فتوجد الهزيمة.

ومفهوم هذا القانون أنه إذا وجد المنتسبون للإيمان، دون أن يوجد الإيمان حقا وصدقا فى قلوبهم، فلا يوجد النصر لهم تبعا لانتسابهم إلى الإيمان وحده..

ومثله قانون آخر يعبر عنه قول الله تعالى:

---

(1) الفتح: ٢٣ ـ ٢٤.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾[1].

فالذين كفروا بالله هم سواء فى عدائهم للمؤمنين، وهم أولياء بعضهم بعضا، مهما بدا بينهم من خلاف. فأهل الكتاب الذين لا يدينون دين الحق ـ كما أسلفنا وهم أولياء لأولئكم الماديين الذى لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، وهم جميعا أعداء للمؤمنين.

فمن يفرق من المؤمنين بين النوعين، ويعلن الولاء لفريق بعد أن يظن الخير به، ويبقى على الحيطة والحذر فى مواجهة الفريق الآخر، ملتزما موقف الإسلام من أعداء الإيمان، فإنه بولائه يجلب الخطر على المؤمنين جميعا، ويكون سببا فى الفساد والعبث الذى يلحق مجتمعات المؤمنين:

﴿ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾

إن اليهود ومن على شاكلتهم يتحركون ككائن عضوى، تندفع أعضاؤه، بطبيعة وجوده الذاتى، وتكوينه للدفاع عن وجوده وكيانه، فهم بعضهم أولياء بعض طبعا وحكما.. ومن ثم لا يملك المسلمون مواجهتهم إلا فى صورة مجتمع إسلامى له خصائصه التى هى أعمق وأمتن وأقوى. فإذا لم تكن المواجهة كذلك، فستقع الفتنة لأفراده.. لأنهم لا يملكون مواجهة هؤلاء أفرادا.. وتقع الفتنة فى الأرض بغلبة الباطل ـ كما هو الواقع ـ ويقع الفساد فى الأرض بطغيان الباطل.. ولا يكون بعد هذا النذير نذير، ولا بعد هذا التحذير تحذير..

والمؤمنون الذين هم فى ولاء مع أى من النوعين، لا يحق لهم أن يلوموا الإسلام وانتسابهم إليه إذا ما لحقهم الأذى والضرر ونزلت الهزائم بسبب هذا الولاء. وإنما يجب أن يعودوا باللائمة على أنفسهم بمخالفتهم أمر الله...

وقد تجلت صلة اليهود بالكافرين والملحدين قديما وحديثا.. والمادية التاريخية تنكر وجود الله.. وتنكر منهج الدين فى السلوك والمعاملة، كما تنكر مقاييس الأخلاق.. وترى الانطلاق فى سلوك الجنس..

---

(١) الأنفال : ٧٣.

الجهاد اليوم :

وعلينا أن نؤمن بأن الفلسفة المادية التاريخية وجدت لتتحدى الدين ـ وفى المقدمة فى هذا المقام اليهود كما هو معلوم ـ والذين يقيمون مجتمعاتهم عليها يقاتلون المؤمنين، حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.. وما قاله القرآن فى المشركين فى تحديد صفاتهم، وفى موقفهم من المؤمنين ـ كما عرفنا ـ ينطبق تماما على أولئكم الذين يتبنون الفلسفة المادية التاريخية فى توجيه شعوبهم ومجتمعاتهم.

ومعلوم ـ أيضا ـ أن هؤلاء الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب فى الدرجة الأولى الذين يبعدون الدين عن التوجيه والتربية. والذين يأخذون اسم العلمانيين منهم هم الذين ينكرون قيمة الدين..

وهؤلاء العلمانيون أولياء لأولئكم أصحاب الفلسفة المادية التاريخية.. لأنهم جميعا ينتهون إلى غاية واحدة، وهى إضعاف الدين أو إبعاده عن مجال التأثير على حياة الإنسان.. هى إضعاف الإيمان بالله، أو إلغاؤه من الوجود الإنسانى.

وولاء هؤلاء لأولئكم، بعضهم لبعض، تدفع إليه روح واحدة، وتخطط له عقلية موحدة فى العصر الذى تعيش فيه الإنسانية اليوم. وهى روح العالمية، والعقلية اليهودية العالمية التى تتمثل مرة فى الفلسفة المادية التاريخية، أو الراديكالية الماركسية، وأخرى فى الرأسمالية الليبرالية، وثالثة فى الماسونية أو فى البنائين الأحرار.

وتستهدف هذه العالمية:

تحقيق التعايش السلمى للأقليات اليهودية فى شعوب العالم.

كما تستهدف إقامة إسرائيل على أرض صهيون، كرمز للوحدة التاريخية للشعب اليهودى ، وفى الوقت نفسه كوطن يلجأ إليه من يشعر بالمذلة أو الاضطهاد فى أقلية من أقلياتهم العديدة .

ولا يمكن أن يتحقق التعايش السلمى للأقليات اليهودية فى شعوب العالم اليوم، كما لا يمكن أن يتوطد أمن إسرائيل على صهيون ـ فضلا عن ازدهارها ـ إلا فى غفلة ممن يحيطون بهم.. ومن هنا كان معول العالمية اليهودية: إن فى الراديكالية الماركسية، أو فى

النظام العلمانى، أو فى الحركة الماسونية.. ضد الإيمان بالله فى كل طبقة من طبقات المجتمع:

فالماسونية تتجه بمعولها للرؤوس وللرؤساء الذين يوجهون السياسة والاقتصاد فى الشعوب.

والعلمانية تسدد ما تملك من معول ضد تقويض القيم الدينية بين المثقفين والشباب فى دور التعليم المختلفة. وفى وسائل الإعلام المتنوعة.

والراديكالية الماركسية تسدد وسائلها التخريبية المختلفة لمحو الدين أساسا، وعلى الأخص بين العمال والفلاحين فى المجتمعات.

وجهاد اليوم فى سبيل الله إن اتجه ضد الماديين الملحدين فى الصور العديدة لاتجاه المادية.. فإنه يشبه ما اتجه إليه بالأمس ضد المشركين.

وإن اتجه إلى العلمانيين من أهل الكتاب.. فإنه كذلك يشبه ما اتجه إليه بالأمس ضد **﴿الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾** .

وإذا اتجه إلى الروح العالمية أو إلى العقلية العالمية اليهودية ـ والصهيونية جانب منها ـ فإنه يكون قد اتجه إلى ذلك المصدر الذى يعقد الولاء والصداقة والترابط بين الماديين والملحدين، والعلمانيين من أهل الكتاب، لتحقيق الهدف المشترك، وهو محاولة رد المؤمنين عن دينهم إن استطاعوا.

وإذا لم يتيقظ المسلمون اليوم إلى هذا المصدر الذى يعقد الولاء بين الاتجاهين فى عداء الإيمان بالله، لتحقيق الهدف المشترك بينهما، فالويل لهم آنئذ من خطره الداهم وفساده الكبير:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾

إن الصهيونية العالمية جانب فقط من العقلية اليهودية ـ كما أسلفنا ـ هى الجانب الذى يتبنى ـ علنا ـ دولة إسرائيل فى إقامتها وبقائها وازدهارها..

ولكن الذى لا يعلن عن نفسه من العقلية اليهودية المحركة فى الواقع ـ وهو الأخطر والأهم ـ هو:

الجانب الفكرى منها وراء الراديكالية الماركسية.

والجانب الآخر الاقتصادى وراء دفع العلمانية فى النظم الرأسمالية ومن على شاكلتها.

وعدم الولاء لأى من الجانبين: الراديكالى الماركسى، والرأسمالى، هو الصورة التى يجب أن يبرز فيها الجهاد اليوم فى سبيل الله.

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ (١).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) الروم: ٤ ـ ٥.



أهم المراجع

١ ــ إسرائيل : فكرة ــ حركة ــ دولة، هانى الهندى ومحسن إبراهيم .

٢ ــ الأسفار المقدسة، دكتور على عبد الواحد وافى، ط ٨ نهضة مصر .

٣ ــ البداية والنهاية، ابن كثير، المعارف، بيروت، ط ثانية ١٩٧٧م .

٤ ــ بلادنا فلسطين، مصطفى مراد الدباغ ، ط دار الطليعة، بيروت ١٩٦٥م

٥ ــ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، دكتور محمد سيد طنطاوى، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨م

٦ ــ تاريخ الإسرائيليين، شاهين مكاريوس .

٧ ــ تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، محمد عزة دردرة، ط أولى نهضة مصر ١٩٥٨م ط ثانية، اللجنة القومية للتأليف والنشر ١٩٦١م، وط ثالثة، المكتبة العصرية، صيدا.

٨ ــ تاريخ العرب قبل الإسلام ، دكتور جواد على ، ط المجمع العلمى العراقى .

٩ ــ تاريخ اليهود فى بلاد العرب، دكتور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

١٠ ــ التفسير الإسلامى للتاريخ، دكتور عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٥م

١١ ــ الجامع الصحيح (سنن الترمذى) ط بولاق ١٢٩٢ هـ، والهند والحلبى ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨م.

١٢ ــ حقائق عن قضية فلسطين، الهيئة العربية العليا لإنقاذ فلسطين ١٩٥٤م.

١٣ ــ حكومة العالم الخفية، شريب سبيريد وفيتش ، ترجمة مأمون سعيد، دار النفائس ، ط سادسة.

١٤ ــ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، عبد الله التل، المكتب الإسلامى ، ط ثالثة ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩م .

١٥ ـ خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر، دكتور محمد البهى، دار الفكر بيروت، ط ثانية ١٩٧٢م.

١٦ ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم، الشنقيطى، ط مؤسسة الحلبى.

١٧ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر العربى.

١٨ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية، الأولى، والمدينة المنورة.

١٩ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٠ ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢١ ـ على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى، إبراهيم بن على الوزير، دار الشروق ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٢ ـ عون المعبود، شرح سنن أبي داود، تحقيق عبد الرحمن عثمان، السلفية ط ثانية ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م.

٢٣ ـ فتح البارى، شرح صحيح البخارى، ابن حجر، الرياض الحديثة.

٢٤ ـ الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى، أحمد عبد الرحمن البنا، ط الإخوان المسلمين.

٢٥ ـ فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م.

٢٦ ـ فى موكب الشمس، دكتور أحمد بدوى.

٢٧ ـ قصة الحضارة، ديورانت، ترجمة محمد بدران.

٢٨ ـ قضية فلسطين، نجيب صدقة، دار الكتب، بيروت ١٩٤٦م.

٢٩ ـ المؤامرة الكبرى، إميل الغورى، النيل للطباعة ١٩٥٥م.

٣٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، ط ثالثة بيروت ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٣١ ـ المستدرك على الصحيحين، الحاكم، ط أولى حيدر آباد.

٣٢ ـ المسلمون وقضية فلسطين، أبو الحسن الندوى، الدار الكويتية.

٣٣ ـ مسند أحمد، وبهامشه كنز العمال ـ للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٤ ـ مسند أحمد، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م.

٣٥ ـ مقارنة الأديان: اليهودية، دكتور أحمد شلبى، النهضة المصرية، ط ثانية ١٩٦٧م.

٣٦ ـ موطأ مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٣٧ ـ هذه هى الصهيونية: إسرائيل، سلسلة اخترنا لك (١).

٣٨ ـ الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين، الجامعة العربية ١٩٥٧م.

٣٩ ـ الوطن اليهودى وعلاقته بالأرض المقدسة، موسى حبيب.

٤٠ ـ يقظة العالم اليهودى، إيلى ليفى أبو عسل، ط النظام بمصر ١٩٢٤م.

٤١ ـ اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية، إيليا أبو الروس.

٤٢ ـ اليهودية والصهيونية، أحمد عبد الغفور عطار، دار الأندلس، ط أولى ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧٢م.

ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة